صلاح البشير

ساكنة الحي الراقي

صلاح البشير

ساكنة الحي الراقي

ISBN 9789776597945

© Willows House 2021

الطبعة الأولى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكة، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين أو الاسترجاع، دون إذن خطّيّ من الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النَّاشر

Willows House
منشورات ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

صلاح البشير

ساكنة الحي الراقي

قصص

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس

إهداء

هـذا إهـداء خـاص أسـوقه إلى خـالي العزيـز محمـد إسـماعيل أبوالقاسـم.. الكلـمات لا تكفيـك حقـك.. يكفينـي أننـي منـك وإليـك.. تحيـاتي

صلاح البشير

(1)

أبُوكُم مَا بِسَوِيْهَا

لمْ تجد تفسيراً منطقياً لحالة اللا مبالاة التي طوقت تصرفات أمها وأفعالها، كأنْ ليس لها فيما يُقال أو يحدث نصيب. جلست على أطراف «العنقريب» بجانب عائشة - شقيقتها الصغرى - تستقبلان ما يتناقله أهل «الفريق» مِنْ حديثٍ بعيونٍ دامعة وقلبين لا يقدران على الثبات على المحنة، ونفسين لا تستطيعان الصبر على النائبة؛ حتى شقيقهما الأكبر حسن لمْ يحتمل ما تلهج به ألسنة الناس. أخلاط مِنْ الغضب والحزن واليأس وعدم التصديق تتسكع فِيْ الصدور الشابة؛ كأنها فيالق الشر وشياطينه قد هجمت عليهم بقضها وقضيضها، تريد هدم البيت بلا رأفة. لمْ يتبق لها سِوى سنة دراسية واحدة للتخرج فِيْ كلية الإعلام، متفوقة فِيْ دراستها، تتدرب بجد فِيْ إحدى المحطات التلفزيونية. عائشة، شقيقتها الصغرى، التحقت بكلية القانون هذا العام، وحسن، الشقيق الأكبر، تخرج فِيْ كلية الاقتصاد، والتحق منذ سنة بوزارة الخارجية، وهو مرشح للعمل الآن فِيْ إحدى السفارات بإحدى الدول الأوربية. خطبت منذ عام لأحد زملائها الذي يتقدمها بعامين والذي يعمل معيداً بالكلية، وتنتظر تخرجها لتزف إليه كيْ يبدآن رحلة حياة جديدة فتية. لا زالت تجلس مع شقيقتها

عـلى طـرف «العنقريـب» كأنهـما تتحفـزان للانقضـاض عـلى شيءٍ مـا. تتفحـص جـدران الغرفـة بعـينٍ لا تـرى مـا تنظـر إليـه، صرخـت فجـأة:

_ ليـي يـا أبـوي تعمـل فِينـا كـده؟ .. سـوينا ليـك شـنو! .. أمـي دي مـا وقفـت معـاك حياتهـا كلهـا .. تجـي في آخـر عمرهـا تجيـب ليهـا ضُره.. بـت شـافعة قـدر بناتـك .. شـان القـروش جـرن فِيْ إيـدك تسـوي فيهـا كـده! .. ده جزاتـه! ..

صمتت بُرهة علا فِيْها نحيبها، ثم أردفت بصوتٍ عالٍ:

_ الرجـال ديـل .. أصلـووووا .. مـا عندهـم أمـان .. الـزي أمـي دي هسـع بعرسـو فِيْهـا .. الواحـد فيهـم مِـنْ يمـلا جيبـو قـروش يقعـد يبحلـق فِيْ البنيـات الصغـار .. لا شـيبة بتخجلـو .. ولا أولاد بعمـل ليهـم حسـاب .. هسـع أقـول لِيْ مجـدي ونسـابتي شـنو؟ .. أبـوي جـدع أمـي وجـاري ليهـو وراء شـافعه قـدري .. لاميهـا مِـنْ الشـارع! ..

ارتمـت عائشـة عـلى صدرهـا وقـد زاد نحيبهـا، ودخـل عليهـما شـقيقها الأكـبر حسـن وهـو يتلفـت خلفـه خائفـاً، قـال:

_ إنطمـي يـا بـت .. عايزاهـو يسـمعك ويجـي يكـسر ليـك راسـك القـوي ده .. قفـلي عـلى الموضـوع ده .. خـلاص البقـى .. بقـى ..

نظرت إليه نظرة حانقة، وقالت تعنفه:

_ آآآي .. مـا .. مـا فـارق معـارك .. راجـل زيـو .. بكـره تعمـل أظـرط منـو .. هسـع بـدل تقيـف ليهـو ألفـاً أحمـر شـان مـا يعـرس فِيْ أمـك ..

نافخ صدرك .. دايـر تسـكتني .. مـا بسـكت .. وإنْ شـاء اللـه الطويـل يكوسـوهو بالعـود الليلـة ..

لمْ يشـأ أنْ يثـير مشـكلة أخـرى، دار حـول نفسـه يريـد الخـروج .. تفاجـأ بأمـه تسـد عليـه الطريـق، دفعتـه برفـق ليجلـس عـلى كـرسي قريـب منهـا، ثـم نظـرت إلى بنتيهـا نظـرة حانيـة، وسـألتهما:

_ مالكن يتبكن وتجرجرن فِيْ مخاخيتكن .. فِيْ شنو ..

لمْ تجيباها، وأشاح الابن بوجهه عنها ليخفي دمعة كادت تهرب، أردفت:

_ أسـمعي يـا فاطنـة وإنتـي يـا عشـة .. وإنـت يـا حسـن .. أبوكـم مـا بسـويها .. الـكلام أنـا سـامعاهو ومـا فايـت أضـاني .. بـس قلبـي مليـان وتريـان .. أبوكـم مـا بسـويها .. ده كلام جابنـوا نسـوان الشـمارات وهـدم البيـوت طبعـن .. الدايـرات يهـدن بيتنـا البنيناهـو طوبـة طوبـة.. أبوكـم كان ضبحـوا مـا بسـويها ..

زاد نحيـب فاطمـة بينـما دهشـت عائشـة وصمـت لسـان حسـن. رسـمت الأم ابتسـامة رائقـة وقـورة، وقالـت:

_ هسـع أبوكـم طلـع .. قـال مـاشي ليهـو لي عقـد بعـد صـلاة العـصر.. لمـن يجـي أسـألوهو كان بتقـدروا ..

صرخت فاطمة قائلة:

_ يأمـي .. أبـوي مـاشي يعـرس بعـد العـصر وإتي تقـول لي مـا بسـويها.. هـو السِـوا دي كيفـن يعنـي؟ .. يعنـي .. لمـن يجـي داخـل

لينا جاري عيالو وراهو .. ويقول لينا ديل أخوانكم مِنْ قشرية .. وإتي ذاتك بتغتغتي ليهو فوق كم؟ .. نحن عارفيين .. أبونا عايز يعرس منو .. و»الفريق» ما فيهو شمار غير راجل آمنه العايز يعرس فيها .. الراجل بدل يعرس لي بناتو كايس العرس لي رقبتو ..

ضاقت بكلماتها وكادت أنْ تلطمها، إلا أنها تماسكت وجعلت تحكي:

_ زمان .. أبوكم ما كان زي ما إنتو شايفنو الليلة .. تجارة ومصانع وعربات وسفر عشان تقضوا الإجازة برة البلد.. قروش النار ما تاكله .. كان حالتنا صعبة وزمان كنا نفتش على القرش فتيش .. يادوب الحال يمشي .. ليلة نتعشى وتلاتا .. لا .. لكن أصعب حاجة كانت تاعباني .. سَكَر أبوكم! ..

صمتت بُرهةً لترى أثر حديثها على وجوه أبناءها، وحين أحست بأخلاط الدهشة والعجب والانتباه تتسكع فِيْ الوجوه، أكملت تقول:

_ آآآآي .. أبوكم الهسع بصلي الخمسة أوقات فِيْ الجامع ده.. كان بِسْكَر يومي على الله .. لمن يقع بردلوب .. ما كنا ساكنين فِيْ «الفريق» ده ولا فِيْ البيت ده .. كنا ساكنين فِيْ «فريق تحت».. وكان قدام بيتنا فِيْ خور كبير وعشان تدخل بيتنا كان فِيْ كبري صغير لازم الواحد يمر فيهو عشان يخش البيت .. أهه أبوكم يجي سكران طينة .. أول حاجة يعمله يقع فِيْ الخور ويقعد يكورك .. .. أقوم أنا ألفح توبي وأمشي عشان أرفعو وأطلعو مِنْ الخور قبل ما يتلموا علينا ناس «الفريق»..

صمتت مرة أخرى وهي تراقب دهشتهم بأناة وريث، وأردفت:

_ كل ما أمسك أبوكم أقول أرفعو يكورك فيني بأعلى حسو ويقول لي: «يا مرة أبعدي مني أنا عندي مرة دهب .. أبعدي مني أنا ما بسمح ليك تمسكي فوقي .. كمان تتمسحي فيني وتقدليني.. الله يلعنك يا الملعونة .. انا ما بلمس لي مرة بعد آمنة .. أبعدي مني الله يهديك أنا راجل معرس .. آمنة دي ستي وتاج راسي .. بعده ما في مرة تاني .. أبعدي الله يهديك أنا ما بتاع نسوان» .. وأنا أصلو ما قلته ليهو أنا يا هيني آمنة .. بس أمسك فيهو وهو يفرفر ويقول الكلام ده لامن أطلعو مِنْ الخور وأدخلو البيت.. يرقد جنبي ويقعد يبكي وأسمعو يتمتم: «الله يستر آمنة ما تكون شافتك يا ملعونة .. تتمسحي فيني زي الحربوية الله يلعنك..».. الكلام ده استمر سنين لمن الله هداهو.. ولي هسع أبوكم ما عارف المرة الملعونة البتطلعو من الخور دي منو .. أهه أبوكم وهو سكران وولد صغير والتكتح ماعندو ما سواها.. حيسويها بعد الشيبة والجامع والغنى .. لا .. لا يا أولادي الله يهديكم.. أبوكم أخوهو ما في .. جاء ويحيييد فِيْ الدنيا دي ما عندو شبه .. حبوبتكم بعد أبوكم عقرت .. أولادها الجابتم مِنْ بطنها .. القبلو والبعدو ما بشبهوهو .. أبقوا عشرة عليهو وما تبهتوا ..

تسوروا حولها يدفعونها إلى مزيدٍ مِنْ الحكايات عنْ أبيهم، وهي تروي لهم بحب عنْ رفيق دربها، ذلك الرجل الذي لمْ ير امرأة غيرها فِيْ سرائه وفِيْ ضرائة، حكت لهم عنْ معاني لمْ يعرفوها.

سـمعوا صـوت البـاب الخارجـي يفتـح، وصـوت أبيهـم يناديهـا بصـوت رائـقٍ وقـور. خرجـت إليـه تلاقيـه بـكل الحـب. سـمعوه يقـول:

_ خـلاص يـا آمنـه عقدنـا لي خديجـة بـت علويـة عـلى سـعد ولـد الخبـير .. ولـد كويـس وشـغال كويـس فِيْ البنـك .. مـا شـاء اللـه اليـوم كلـو في الجامـع

سـمعت فاطمـة اسـم الفتـاة جـرت باتجـاه أبيهـا وارتمـت عـلى صـدرة تبـكي وهـو حائـر لا يعـرف لبكائهـا سـبباً.

الولايات المتحدة الأمريكية - ولاية ميريلاند - يوليو 2017م.

(2)

زَوْجِيْ لا يُحِبُ غَيْرِيْ

شعرت بضيقٍ شديد، تمشت على السجاد الأعجمي مِنْ سريرها المزدوج الكبير إلى النافذة الواسعة جيئة وذهاباً فِيْ اضطرابٍ وقلقٍ واضحين. تناولت جهازي التحكم مِنْ بُعد وأشارت بالأسود إلى شاشة التلفاز المعلقة على الحائط العريض، ضغطت على زره الأخضر، أخفضت الصوت قليلاً، ثم حركت الناقل بين القنوات الفضائية علَّها تجد مكاناً تشكي إليه همومها أو برنامجاً ما ينسيها أياها، وأشارت بالأبيض إلى جهاز تكييف الهواء فِيْ الجانب الآخر مِنْ الغرفة الفسيحة، أدارته وضبطت درجة حرارة الغرفة بما ناسبها، ثم استلقت على أريكة كبيرة. شيءٌ ما عكر صفوها ساعة ذاك لمْ تدرِ ما هو ولمْ تعرف مصدره. مسحت بيدها على رأسها ثم غرزت أناملها بين خصلات شعرها الطويل، التفتت إلى المرآة المذهبة والمشدودة على الحائط الجانبي، بصرت نفسها كأجمل ما تكون المرأة، أحست بأنوثتها الطاغية، حاولت أنْ ترسم ابتسامة راضية؛ لكنها لمْ تستطع. عادت بنفسها إلى جلسة الحريم مع صويحباتها الخُلص؛ وداد، ونادية، وسناء، ولُجين، وهناء، وسُلافة، وعفراء، ونوال، ونون. نساء الحي الشرقي العشر كما تناديهن بقية النساء الأخريات. عشر نساء فِيْ ريعان شبابهن اجتمعن فِيْ

مـكانٍ واحـد فأصبحـن صديقـات، وجميعـن متزوجـات مِـنْ رجـال مِـنْ صفـوة المجتمـع ووجهـه المخمـلي. منـذ عودتهـا مِـنْ جلسـتهن الأخـيرة وهـي لا تشـعر بالرضـا دون أنْ تعـرف لهـذا الشـعور سـبباً. كـنَّ يتحدثـن عـنْ أزواجهـن ولا شيء آخـر .. قضـين وقتـاً طيبـاً فِيْ بيـت نـوال الجديـد والـذي انتقلـت إليـه حديثـاً؛ وقـد دعتهـن لزيارتهـا ورؤيـة تحفتهـا الجديـدة والواسـعة بعـد أنْ بنتـه إحـدى شركات المقـاولات الأجنبيـة عـلى الطـراز الأندلـسي .. إلا أنَّ شـيئاً مـا حـدث فِيْ هـذه الجلسـة أقـض مضجعهـا لا تسـتطيع أنْ تحـدده عـلى وجـه الدقـة، كان هـذه الشـعور ينتابهـا بـين الفينـة والفينـة منـذ زمـن ليـس بالقصـير، لكنـه تعاظـم بعـد هـذه الدعـوة.

شرعـت كل واحـدة منهـن فِيْ التحـدث عـنْ زوجهـا حديثـاً طيبـاً، فنـوال ذكـرت سـخاءه وبذلـه النفيـس لآجلهـا وأجـل أولادهـما، وكان آخـر مـا قدمـه لهـا هـو هـذا البيـت الجديـد ذي الطـراز الأندلـسي، ووداد ذكـرت نجاحـات زوجهـا الطبيـب المختـص فِيْ علـم النسـاء والتوليـد، ونادية تحدثـت عـنْ وسـامة زوجهـا وكـثرة المعجبـات حولـه، وكذلـك مضـت الأخريـات، حتـي هـي نفسـها تحدثـت بفخـر عـنْ زوجهـا الشـاب الـذي يفـوق فِيْ وسـامته زوج نادية، وفِيْ سـخاءه زوج نـوال، وفِيْ شـهرته كطبيـب يختـص بالقلـب شـهرة زوج وداد المختـص بالنسـاء والتوليـد، بـل يبـذ كل رجـال صويحباتهـا فِيْ كل شيء. لمْ يقفـن عنـد حـدود الصفـات الحسـنة بـل زدن عليهـا حتـى وصلـن إلى تفاصيل شـديدة الخصوصـة. غـير أنهـا لاحظـت شـيئاً غريبـاً وهـن يتحدثـن عـنْ رجالهـن. كانـت عيونهـن تلمـع بوميـضٍ عجيـب وغريـب يشـع كالسـهم مِـنْ عيونهـن حـين تقـوم إحداهـن بالحديـث عـنْ رجلهـا..

وكانت تحس سعادة غريبة تسري فِيْ نفوسهن وهن يسمعن للتفاصيل، حتى هي نفسها كان ينتابها شعور باللذة وهي تسمع منهن صفات أزواجهن وأخبارهن الخاصة معهن .. إلا أنَّ الوميض انطفأ تماماً فِيْ عيون صويحباتها حين جاء دورها .. ولمْ تشعر بأنهن سعيدات بما يسمعن مِنها .. لمْ تستطع أنْ تفسر ذلك ولمْ تقدر على أنْ تسبر أغوارهن.

سمعت نقراً على باب غرفتها فأذنت للطارق بالدخول .. دلفت الخادمة الأجنبية لتخبرها عنْ طلب بعض الضيوف مقابلتها؛ أدركت مِنْ وصف الخادمة أنهن نوال ووداد ونادية. نهضت مِنْ أريكتها فِيْ شيٍ مِنْ دلالٍ وغنج، تقدمت إلى خزانة ملابسها، وبعد جهد استقرت على أنْ ترتدي ملابساً بسيطة. بدلت قميص نومها بتنورة مِنْ الدانتيل المُعرق ببعض الورود الكبيرة لتخفي بعض الامتلاء الذي بدى ظاهراً عليها بعد ولادتها الأخيرة، ثم ارتدت قميصاً رائعاً أخضر اللون يناسب التنورة الطويلة وقوامها الفارع. وقفت أمام المرآة وعدلت مِنْ مكياجها بعض الشيء ثم فردت شعرها الطويل، وأمالت خصلة منه إلى جانب وجهها الأيسر، وصبت بعض زخات مِنْ عطورٍ يعرفنها النساء، شعرت ببعض الرضا وهي تبصر نفسها كأفضل ما يجب أنْ تكون عليه الأنثى، وخرجت إليهن.

استقبلتهن استقبالاً عظيماً وهي ترسم الابتسامة تلو الابتسامة، وأكرمتهن بما اشتهرت به مِنْ كرم. قالت لها وداد:

_ ما تقولي لي يا سارة كأنك ما ولدتي .. بسحروك يا بت .. ما شاء الله عيني باردة .. يتتريضي وين لأني ما شايفاك بتجي

«الجيـم» .. تلقـاك جايـب ليـك مدربـة خاصـة تعلمـك «الزومبـا» .. بعرفـك أنـا بتريـدي روحـك ..

أجابتها بضحكة عذبة طويلة:

_ أبداً والله .. لا «جيم» .. ولا «زومبا» .. جسمي براهو رجع ..

قالت نوال، وهي ترسم ابتسامة ودودة:

_ يـا بتـي ده الطـول .. مـا شـاء اللـه عليـك يـا سـارة عينـي بـاردة .. طولـك نفعـك ..

لمْ تشاركهن نادية، بدت كدِرة، فسألتها دهشة:

_ مالك ساكتة يا نادية .. وين شماراتك؟ .. ما فِيْ جديد ..

نظـرت إليهـا بفتـور، لكنهـا سرعـان مـا قالـت بصـوتٍ خفيـض حزيــن:

_ ما فِيْ أي شمار ..

صمتت قليلاً ثم أردفت بصوت عالٍ لكنه أقرب إلى العويل:

_ حتـى معجبـات عـماد وقفـن مِـنْ الشـمار .. لا لاقيـتن يكتـبن ليهـو فِيْ الواتــس آب .. لا فِيْ الانســتجرام .. لا فِيْ التويــتر .. ولا فِيْ فيســبوك .. طشـن شـبكة مـرة واحـدة ..

ضحكت سارة حتى كادت تسقط مِنْ مقعدها، وقالت ساخرة:

_ ده طَلَـس شـنو ده .. إتي جنيتـي يـا بـت .. فِيْ واحـدة تزعـل عشـان المعجبـات طشـن مِـنْ راجلـه .. يمكـن اتصلـح .. و ..

قاطعتها نوال:

_ ويمكن غير دريباتو ليهن ..

نظرت وداد إلى نوال نظرة ذات معنى لاحظتها سارة، ثم قالت:

_ ويمكن تاب ..

صرخت نادية:

_ سـجمي! .. وأنـا أسـوي بيهـو شـنو كان تـاب .. راجـل النسـوان مـا بجـرن وراه دايـره بيهـو شـنو .. تعرفـن أنـا بحـب راجـلي أكـتر لمـن أشـوف البنـات مكسرات فيهـو .. الكبـيرة قبـل الصغـيرة .. صحـي بغـير عليهـو وبتمنـى أمسـك فشـفاش الواحـده أهـردو فِيْ إيـدي .. لكـن ده بشـعلل قلبـي وبخليني أحبـو أكـثر .. ,أشـوف مـا في راجـل زيـو ..

عجبـت سـارة لمـا قالتـه ناديـة لهـن، لكـن نـوال ووداد كانتـا عـلى النقيـض مِنْهـا، وأكدتـا بأنهـن يبحـثن فِيْ كل مـا يخـص زوجيهـما باحثتـان عـنْ إمـرأة أخـرى تثـير فيهـما مكامـن الغـيرة وتشـعل أتونهـا الحارقـة ليترعـرع حبهـما لزوجيهـا سـليماً معـافى مِـنْ كل منقصـة. تركنهـا ضيفاتهـا الثـلاث حائـرة بعـد أنْ ودعنهـا، وهـي تسـائل نفسـها: كيـف لامـرأة أنْ تسـتمتع بإعجـاب أو حـب أخريـات لزوجهـا؟ .. وكيف تكـون هـذه المتعـة وقـوداً لحبهـا لـه؟

اتجهت إلى غرفة المكتب المخصصة لزوجها .. جلست على منضدته .. لا زال حاسوبه المحمول موجود فِيْ مكانه .. ضغطت على زر التشغيل .. ليس لديه كلمة مرور .. دخلت على حسابه فِيْ فيسبوك .. كل المنشورات علميه وفيها شيء مِنْ ثقافة وأدب وسياسة ورياضة .. قائمة أصدقاءه بها قرابة الألف صديق .. بينهن بعض الصديقات .. يتقدمهن لقب «دكتورة» .. تابعت مشاركتهن.. لا يشتركن إلا فِيْ المنشورات العلمية التي لا تفهمها .. ليس لديه حساب على تويتر ولا انستجرام .. تعرف أنه لا يملك حساباً على واتس آب .. استندت على راحة يدها اليمنى وهي لا تزال تبحلق فِيْ حسابه على فيسبوك .. تذكرت وميض عيون صويحباتها وهن يسمعن حديث بعضهن البعض عنْ أزواجهن.. لمْ يظهر هذا الوميض حين كانت تتحدث عنْ زوجها .. إنه لا يثير اهتمام النساء.. هذا أمر واضح لا مراء فيه .. هو أيضاً لا يهتم بهن .. لا تذكر أنه أبدى ملاحظة ما على إحدى صديقاتها سواء كان ذلك خيراً أو شراً.. ولمْ يحدث أنْ اصطادت نظراته إليهن .. لا يأتي على ذكر النساء أبداً أمامها .. ترى لماذا لا يفعل؟ .. فقط يذكر حبه لها .. لكنها لا تدري ماذا تفعل برجلٍ لا تحبه النساء.. ماذا ستستفيد مِنْ هذا الحب.. إنْ لمْ يثرنه النساء فلِمَ اختارها دونهن؟ .. أدركت الآن سر هذا الشعور الذي ينتابها مرة بعد مرة .. وعرفت سبب تعاظمه بعد دعوة نوال .. زوجها لا يحب غيرها .. ولا يرى امرأة أخرى غيرها.. ليس لديه معجبات يثرن غيرتها نحوة .. جرت إلى رئتيها نفساً عميقاً وأطلقته فِيْ قوة، ووتنهدت قائلة فِيْ قلقٍ واضطراب:

_ دي عيشة شنو دي .. عايشه لي مع واحد ما بعرف حاجة

عـن النسـوان .. قـال دكتـور قلـوب قـال .. صحـي القلـم مـا بزيـل بلم..

أغلقت جهاز الحاسوب .. وخرجت لترضع مولودها الجديد.

الولايات المتحدة الأمريكية .. ولاية ميريلاند .. يوليو 2017م

(3)

أرِيْدُه مَازُوْخِيَّاً!

حدقـت فِيْ صاحبتهـا الواقفـة أمامهـا فِيْ ذهـول، لا تـكاد تصـدق مـا تـراه، بـدت شـديدة الاضطـراب والقلـق والحنـق دون أنْ تتكلـم؛ أمـرٌ عظيـمٌ يُعكـر مزاجهـا، تـكاد تجـن. أفسـحت لهـا لتدخـل. دلفـت إلى بهـو المنـزل الفسـيح، وارتمـت عـلى الأريكـة المخمليـة زافـرة هـواءً سـاخناً مِـنْ رئتيهـا، وهـي تراقبهـا دون أنْ تنبسـا ببنـت شـفة. تركتهـا فِيْ مكانهـا وانطلقـت لتقـوم بواجـب الضيافـة، عـادت إلى ضيفتهـا بعـد أنْ أوصـت الخادمـة بمـا يجـب. جلسـت يمينهـا عـلى كـرسي وثـير، تركتهـا لنفسـها قليـلاً حتـى ناولتهـا الخادمـة عصـير «القونقليـز» المثلـج، لمْ تـشرب شـيئاً، وضعتـه بعصبيـة عـلى الطاولـة الزجاجيـة المحـلاة باللـون الفـضِي. التزمـت الصمـت ولمْ تتحـرك دون أنْ تمنـع نفسـها مِـنْ مراقبـة ضيفتهـا المضطربـة. زاد قلقهـا وهـي تحـرك سـاقها وقدمهـا اليمنيـين بعصبيـة زائـدة؛ شـبكت أصابـع يديهـا العـشرة مـع بعضهـم البعـض أمـام بطنهـا الـذي يرتفـع وينخفـض مِـنْ شـدة الشـهيق والزفـير. صرخـت بصـوتٍ مكتـوم، قائلـة:

_ الليلـة فلـت منـي العيـار يـا فاتـن .. مـن خمسـتاشر سـنة ميـزاني زي ميـزان الدهـب .. بديهـو قـدر مـا يسـتحمل .. حتـى لمـن أزيـدو

شوية بعرف أقيف وين .. حدو عارفاهو .. الله يلعن الشيطان .. الليلة كترتها شديد يا فاتن .. سويته شينة .. الله يستر ..

انتقل القلق والاضطراب لفاتن نفسها، سألتها مستفسرة:

_ ده كلام شنو يا شادية .. سويتي شنو يا بت الناس؟ .. وبتتكلمي عنْ منو؟ ..

نظرت إليها بضيق، وسحبت شهيقاً قوياً إلى رئتيها ثم زفرته بعنف، ترورقرت عيناها بفيضٍ مِنْ دموع؛ وقالت بصوتٍ مخنوق:

_ يعني ح أكون بتكلم عنْ منو يا فاتن! .. عندي منو أنا غير شريف .. راجلي ..

شعرت ببعض الراحة فقالت تهون على ضيفتها:

_ بوظتي أعصابي يا بت الناس .. هسع قومة النفس دي عشان شريف راجلك .. ما من ما عرستيهو خاتاهو تحت أباطك.. الجديد شنو المُتَوِّر نفسك كده .. خلاص عايزة تعملي ليهو توم وشمار .. من متين؟

أصيبت بخيبة أمل جعلتها تقف وقد هربت دموعها مِنْ مآقيها، التفت لتغادر المنزل فأمسكت بها فاتن وأجلستها قسراً بعد أنْ شعرت بأنَّ صاحبتها لا تكاد تحتمل نفسها. ناولتها صندوق مناديل الورق مِنْ على الطاولة، سحبت منه عدة مناديل لتمسح به دموعها فِيْ رفقٍ بين. قالت لها فاتن وهي تحاول رسم ابتسامةٍ وادعة:

_ باين عليك خربتيها .. سويتي شنو للراجل المسكين ده؟

زاد نحيبها وجعلت تقول بصوت فِيْه حشرجة أشبه بحشرجة الموت:

_ خربتها ساكت .. ده أنا طينتها الليلة .. ما عارفة كيفن سويت كده .. شريف ده أنا حافظاهو صم .. بعرف كيف أسيطر عليهو سيطرة كاملة .. ما بديهو فرصة يفرفر .. وكنت بستمتع بالسيطرة عليهو .. لكن الليلة فلت مني العيار .. ما قدرته أقيف .. تقول جواي عفريت .. استفزيتو استفزاز ما بتحملو بشر ..

صمتت برهة مسحت فِيْها بعضاً مِنْ دموعها؛ وأردفت:

_ دايماً كنت بعرف أقيف وين ومتين .. دايماً بديهو قدر ما يستحمل وأخليهو زي الخاتم فِيْ صُباعي .. لكن الليلة أديته كووووز كبيييير خلاص .. الله يستر ..

صمتت مرة أخرى دون أنْ تقاطعها فاتن، فأردفت:

_ عاين لي عين ما شفتها من عرستو .. عين خلعتني وخوفتني.. ما كده وبس .. مرق من البيت لأول مرة في حياتو .. شفت زول الليلة ما بشبه شريف الأنا بعرفو .. كأنو ما الراجل الأنا خاتاهو تحت أباطي خمستاشر سنة .. ده مرق ما قال ولا كلمة .. والله.. والله .. لغاية هسع وأنا معاك لما أذكر عينو ركبي تضرب في بعض وأقرب أقع في الواطة .. الله يستر ..

حاولت أنْ تهون عليها فقالت:

_ كدي هدي نفسك شوية .. إنتي جاية زعلانة شوية ..

صمتت برهة ولما لمْ تجبها قالت تدفعها للكلام:

_ كدي طيب أحكي لي الحصل شنو براحة كدة ..

كأنَّ هـذا مـا كانـت تريده، قالت وكأنها تسـترجع شريطـاً مِنْ الماضي:

_ مـما عرسـت شريـف وأنـا بحـاول أسـيطر عـلى كل حياتـو .. يـأكل شـنو .. يـشرب شـنو .. يصاحـب منـو .. يلبـس الألـوان البتعجبنـي أنـا.. القميـص ده مـا حلـو .. ألبـس القميـص الكاروهـات الجبتـو ليـك مـن دبي مـع البنطلـون كـذا .. لا الليلـة مـا تمـشي نـاس أمـك نمـشي سـوا ناس دلال أختـي عازمانـا غـداء .. لا الليلـة مـا تمـشي الكـورة تعـال نمـشي سـعد قـشرة .. العيـد ده مـا نضبـح عندنـا نضبـح عـن نـاس أمـي أنـا ما فاضيـة للكمونيـة ولا للشـية ومـا تجيـب لينـا زول مـن أصحابـك عشـان نخدمـو ليـك .. مـا عايـزة شـغالة واحـدة مـا بتكفـي عايـزة تلاتـة .. العيـال ديـل مسـئوليتي أنـا إنـت مـا عنـدك دخـل .. وكان قـال ليهـم حاجـة أقـول ليهـم ألـف لا .. عايـزة أوديهـم مـدارس إنترناشـيونال مـا عايـزة أوديهـم مـدارس سـودانية .. مـا كان بلاوينـي كتـير .. يقـول الدايـرو وأعمـل الدايراهـو ..

صمتـت برهـة وتناولـت عصـير «القونقليـز» الـذي شـكى مِـنْ الـدفء، فانتهـزت فاتـن الفرصـة ونـادت عـلى الخادمـة لتـأتي ببعـض مكعبـات الثلـج، وقالـت مداعبـة:

_ العصير سخن من البكاء .. خليها تجيب ليك تلج ..

رسمت ابتسامة فاترة، ووضعت كوب العصير بعد أنْ رشفت رشفة صغيرة، ثم أكملت:

_ طبعاً انتي عارفة أنو ما بكسر لي كلام .. وأنا كنت بستمتع بالسيطرة عليهو وعلى كل شيء في البيت .. مش كدة وبس أكتشفته إني بستمتع لما تطول فترة مقاومتة وبعدين يخضع زي الكلب ..

استفزتها العبارة الأخيرة، فقضبت جبينها وزمت شفتيها، ولاحظت بأن عيني شادية لمعتا بوميضٍ غريب حين ذكرت عبارة «يخضع زي الكلب»، سألتها مقاطعة:

_ يعني شنو زي الكلب؟ .. في واحدة بتقول لي راجله زي الكلب ..

كأن شيطان مِنْ المردة قد تلبسها فقالت دون وعي:

_ عارفة يا فاتن أنا بستمتع لمن أحس بيهو راضخ لي رغباتي .. بستمتع لمن أقهرو .. بستلذ لمن أذله وأحس إني انتصرت عليهو .. عارفاهو ما بكون راضي .. وبكون متألم .. لكني باستمتع بي السيطرة عليهو وقهرو وذلتو .. أعاين لي تعابير وشو وأحس بألمو وأشعر بي نشوة مبالغة ..

قاطعتها قائلة:

_ والله يا شادية أختي إنت ما نصيحة .. إنتي سادية عديل كدة .. هسع ود الناس ده ذنبو شنو عشان تعاملي كده ..

أجابتها بنشوة دون أنْ تنتبه:

_ أنا ما سادية .. لكن هو مازوخي .. بحب يعيش متألم وراضخ لي واحدة أقوى منو .. وبيني وبينك أنا عاجبني كده .. دايراهو مازوخي عدييييل ..

شهقت فاتن وبدا عليها الهلع، وضربت على صدرها وقالت وهي تحاول أنْ تخفض صوتها حتى لا يسمعها أحد:

_ سجمي! .. يمين أتحاسب عليه يوم القيامة إنتي جنيتي عدييل .. ما تكوني بدقيهو ولا بتربطيهو في السرير لما تكونوا مع بعض ..

انتبهت شادية إلى كلمات فاتن، زاد اضطرابها، وقالت بكلمات حاسمة:

_ دي عوارة ولا شنو .. كمان ده فوقو دق ولا ربيط .. أقول ليك أسيطر عليهو .. طوالي مخك مشى للسرير ..

سألتها وهي لا تصدقها:

_ طيب مالك بتجرجري في مخاخيتك .. الحصل شنو مع شريف جديد .. ما ليك خمستاشر سنة معرساهو وبتسوي في البتسوي فيهو ده ..

أجابتها بحنق:

_ زودت العيـار شـوية .. شـتمته .. قلـت ليهـو إنـت مـا راجـل .. وكان راجـل صحـي طلقنـي ..

صرخت فِيْ وجهها:

_ واللـه إنتـي مـا نصيحـة .. في واحـدة تقـول لي راجلـه أنـت مـا راجـل! ..

لمْ تجبهـا، سـمعا صـوت هاتفهـا المحمـول يـرن، تناولتـه مِـنْ حقيبـة يدهـا، أبـصرت مِـنْ الشاشـة اسـم والدهـا، أصابهـا شيء مِـنْ هلـع، نهضـت وهـي تنظـر إلى صاحبتهـا، دعسـت عـلى الـزر الأخـضر لتجيـب، تسـمعته للحظـات، ثـم صرخـت وهـي تسـقط عـلى الأريكـة:

_ شريف طلقني!

الولايات المتحدة الأمريكية – ولاية ميريلاند – يوليو 2017م

(4)

أنَا الأفْضَلُ

وقـف يطالـع صـورة زوجتـه المعلقـة عـلى حائـط الصالـة؛ كـم يحـب هـذه الصـورة. تبـدو فِيْهـا غايـة فِيْ الجـمال. تراجـع إلى الخلـف وعـبر الممـر إلى المطبـخ وهـو لا يـزال يطالعهـا. تنـاول كـوب الشـاي السـاخن الـذي صنعـه منـذ قليـل، واتجـه إلى الصالـة مـرة أخـرى وهـو يبتسـم للصـورة وزوجتـه عـلى السـواء. تمـدد عـلى أريكـة واسـعة بعـد أنْ وضـع الكـوب عـلى طاولـة كبـيرة توسـطت جلسـة رائعـة. سـحب رشـفة أحـس بعدهـا بجـودة صناعتـه، ثـم أدار جهـاز التسـجيل وأخـذ يـردد بعـض الأغنيـات بمـزاجٍ رائـق.

كـرَّت مسـبحة ذكرياتـه، واسـتعاد أيـام كانـا طالبـين فِيْ نضـارة الصبـا وريعـان الشـباب. أحبهـا مِـنْ النظـرة الأولى، وجعـل يحـوم حولهـا حتـى أسلسـت ولانـت. كانـت أجمـل طالبـات كليـة القانـون، وكان شـاباً وسـيماً يـدرس فِيْ كليـة الآداب قسـم اللغـة الفرنسـية. جمعهـما الحـب والجامعـة، وتخرجـا فِيْ نفـس السـنة. لمْ تكـن طالبـة متفوقـة لكنهـا كانـت طالبـة مجتهـدة تُعنـى بدراسـتها بمـا يكفـي نجاحهـا، وكان متفوقـاً فِيْ دراسـته، عُـيِّن بعدهـا معيـداً فِيْ الجامعـة، وأرسـل إلى السـوربون ليتخصـص فِيْ الأدب الفرنـسي. مـضى كل شيء كـما خططـا لـه. تزوجـا بسرعـة وسـافرا سـوياً إلى فرنسـا. لمْ تعجبهـا

بـلاد الفـن والجـمال، وكانـت تتحـين الفرصـة للعـودة إلى السـودان بـأي طريقـة، عـادت مرتـين لتضـع طفليهـما مـازن ومُزنـة وأقامـت نحـو سـتة أشـهر فِيْ كل مـرة. أدرك أنهـا تعـاني مِـنْ شـوق للبـلاد، وأنهـا لا تحتمـل الغربـة، فأكمـل دراسـته فِيْ أقـصر وقـت، وعـاد بهـم بـأسرع مـما يسـتطيع. عـادت بعدهـا إلى حياتهـا المعتـادة، واسـتجمعت شـتات نفسـها وحصلـت عـلى إجـازة القانـون، وتدربـت عـلى أيـدي أفضـل المحامـين وأصابهـا النُجـح، فقـررت أنْ تسـتقل بذاتهـا ويكـون لهـا مكتبهـا الخـاص. ذاع صيتهـا حتـى عـم القـرى والحـضر، وهـو سـعيد بهـذا النجـاح الباهـر، كـما أنـه سـعيد بعملـه أسـتاذاً بالجامعـة، يـدرس طلابـه بحـب ورضـاً.

لَمْ يـدرِ كـم اسـتلقى ولا إنْ كان قـد أخذتـه غفـوة، لكنـه أحـس بحركـة فِيْ جـواره أو توهـم بهـا. رفـع بـصره إلى السـاعة المعلقـة عـلى الحائـط بجانـب شاشـة التلفزيـون الكبـيرة، أشـار عقرباهـا إلى الخامسـة والنصـف بعـد الظهـر. قـضى نحـو سـاعتين ونصـف السـاعة وهـو لا يـدري إنْ كان يقظانـاً أم غافيـاً. نهـض واقفـاً وتمطـى متثائبـاً، شـاهد بـاب غرفـة النـوم موارباً، لَمْ يكـن يحلـم إذن فقـد عـادت نـورة مِـنْ عملهـا. اتجـه ناحيـة الغرفـة ودلـف داخـلاً، فوجـئ بهـا ملقـاة بفوضويـة عـلى السريـر، وقـد غطـت نفسـها بثـوب العمـل الأبيـض الـذي كانـت ترتديـه، همـس يناديهـا مـرة أو مرتـين، رفعـت إليـه عينـين فاترتـين، تبـدو مجهـدة، سـألها بحـب:

_ جيتي متين؟ .. والله ما حسيت بيك .. شكلك مرهقة ..

أجابته وهي تغمض عينيها استدعاءً للنوم:

_ آآي والله تعبانة شديد .. اليوم كلو واقفة على كرعي .. مِنْ محكمة لي محكمة .. واليوم كان حر موت بس .. والكهرباء مقطوعة فِيْ المجمع .. حاجة تقرف ..

جلس إلى جوارها راسماً ابتسامة رائقة، وقال:

_ حتنومي جيعانة ..

أجابت بضيق، كأنها تريد أنْ تمنعه مِنْ الاستمرار:

_ عليك الله بطِل الثقالة البتعمل فيها دي .. أنا ما قادرة أقيف علي كرعي خلي أقوم أسوي أكل عشان تتحشو إنت وأولادك.. قوم شوف ليك دليفري من أي حتة وأكلو أنا ما دايرة أتسمم .. دايرة أنوم لي شوية ..

صدمته كلماتها وضاقت به الدنيا بما رحبت، لكنه لمْ يبدِ امتعاضاً. نهض واقفاً وخرج بينما تمددت على فراشها غير أبهة به. جلس على ذات الأريكة التي كان مستلقياً عليها، وتناول جهاز التحكم مِنْ بُعد، وتجول فِيْ القنوات الفضائة حتى استقر على قناة الأخبار. حاول أنْ يشغل نفسه بأنباء الدنيا ويتجاوز كلماتها القاسية. سرح بخياله إلى فرنسا وأسلست نفسه إلى رواية كانديد أو التفاؤل لفولتير .. حاول أنْ يتقمص روح الفيلسوف بانجلوس المتفائلة.. وصاحب مبدأ «مهما بلغ السوء فالأمر يدعو إلى التفاؤل».

سمع طرقاً على الباب الخارجي، اتجه ليرحب بالقادم، إنهما خالدة وأحلام صديقتا زوجته نورة. رحب بهما ودعاهما إلى

الدخـول، ولجـوا إلى داخـل الـدار ففوجـئ بنـورة تقـف وهـي فِيْ كامـل هندامهـا لتسـتقبل ضيفتيهـا. قالـت مرحبـة وبوجـهٍ بـاشٍ:

_ أهـلاً يـا خالـدة .. كيفـك يـا أحـلام .. زارتنـا البركـة .. مالكـن طولـتن منـي ..

اسـتأذن منهـن، واتجـه إلى غرفـة نومهـما، لمْ يمـض وقـت طويـل حتـى لحقـت بـه، سـألته بلهفـة:

_ طلبت شنو دليفري؟ ..

أجابها ياستياء:

_ مـا طلبتـه حاجـة .. أنـا ومـازن أكلنـا سـلطة الأسـود البايتـة فِيْ الثلاجـة .. والولـد طلـع بعدهـا يقابـل أصحابـو .. ومزنـة عملـت ليهـا أندومـي أكلتـه ونامـت .. إنتـي عارفاهـا مـا بتـأكل سـلطة أسـود ..

رسـمت عـلى وجههـا أخلاطـاً مِـنْ الاضطـراب والقلـق والاسـتياء والحنـق، خرجـت وهـي تتمتـم:

_ حاجة تقرف! ..

ضـاق بمـا قالـت، لكنـه تذكـر فيلسـوف فولتـير؛ قـام إلى خزانـة ملابسـه، أخـذ ملابسـاً داخليـة، ودخـل إلى الحـمام الملحـق بالغرفـة واسـتحم عـلى عجـل. ثـم ارتـدى بنطـالاً رمـادي اللـون، وقميصـاً أبيضـاً، ورش عـلى نفسـه بعـد زخـاتٍ مِـنْ عطـر باريـسي جميـل، وجـرى بالمشـط عـلى شـعره، نظـر إلى نفسـه فِيْ المـرآة، شـعر ببعـض الرضـا،

يريـد أنْ يخـرج قليـلاً حتـى لا يصـاب بالكآبـة. ليسـت لديـه وجهـة معينـة، لكنـه يريـد الخـروج إلي حيـث تسـوقه سـاقاه. فتـح بـاب الغرفـة بهـدوء، سـمع إحداهـما تسـأل، وهـي تضحـك بوقاحـة:

_ عاملة كيف مع الفرنساوي يا نورة؟

أجابتها بحنق:

_ واللـه مـا لاقـين منـو غـير داكـوغ وميغـسي .. المغـس المـا لاقياهـو العاقـر ..

قالت الأخرى:

_ سجمي! .. مالو بطل بدري؟ .. إعتزل صغير

أجابتها بغضب:

_ أنـتن نسـوان فارغـات سـاي .. أنـا فاضيـة للـكلام الإنـتن بتقولنـوا.. يـا ظريفـات أنـا لازم أحقـق ذاتي .. لازم أنجـح وأنجـح وأنجـح.. لمـن أبقـى أكـبر محاميـة في البلـد .. مـش كـده بـس أنـا ناويـة أبقـى وزيـرة أو نائبـة في البرلمـان .. أنـا خـلاص مـا في راسي غـير مسـتقبلي المهنـي والسـياسي .. الحمـد للـه أولادي كـبرو .. داخلـين عـلى الجامعـة.. تـاني الراجـل أسـوي بيهـو شـنو ..

سألتها مرة أخرى:

_ وهو عامل معاك شنو؟

أجابتها وهي تضحك:

_ ماشي وين ماشي الجامعة جاي من وين جاي من الجامعة.. داكوغ وميغسي .. بس تاني ما في حاجة ..

سألتها الثانية:

_ يعني خلاص اعتزلتي الرجال ..

أجابتها:

_ يا بتي الراجل ده بلوة من الله ما خلقو .. فاكرين نفسهم اشترونا .. أنا ما فِيْ راجل بشتريني .. أنا أحسن منهم كلهم .. بلا داكوغ بلا ميغسي .. بلا قرف ..

غضب غضباً شديداً، وعاد إلى غرفته وهو لا يجد لما سمع سبباً، لمْ تطعه قدماه، لكنه أجبرهما على العودة، استلقى بكامل هندامه على سريرهما الواسع. لا يكاد يصدق ما سمع، والغضب والحنق والقلق والاضطراب يكادون أنْ يقتلوه. لِمَ هذه اللغة الوقحة؟ ولِمَ تذكره بهذا السوء؟ .. ماذا فعل لها حتى تضيق به كل هذا الضيق؟ .. لمْ يقف يوماً أمام نجاحها .. بل على العكس ساعدها بكل الطرق .. ساهم فِيْ تدريبها فِيْ أفضل مكاتب المحاماة لدى قريبه وابن عمه حسن عبد الله المحامي .. المحامي الأكثر شهرة .. وعمِل على تهيئة الأجواء حتى تحصل على إجازة القانون.. وتنازل لها عنْ الشقة الواسعة التي ورثها عنْ أبيه فِيْ أفضل المباني التجارية فِيْ المدينة لتجعلها مكتباً خاصاً بها؛ رغم أنه كان يحلم

بإنشاء مكتب للدراسات الاستراتيجية السودانية يُعني بتقديم كل ما هو سوداني باللغة الفرنسية. إذن! .. فِيمَ قصر؟ .. لمْ يجد إجابة.. حاول أنْ يشحذ ذاكرته علَّه أخطأ فِيْ حقها دون أنْ يدري .. لكن الذاكرة لمْ تسعفه أيضاً ..

دخلت عليه وهو مستلقٍي على هذه الحال؛ سألته وهي تخلع ثوبها عنها:

_ إنت مارق يا أحمد؟

أجابها وهو يحاول أنْ يسكت غضبه:

_ فِيْ الحقيقة منتظرك .. عايز أعزمك مكان هادئ .. أغديك ونتكلم شوية فِيْ أمور حياتنا .. طولنا ما قعدنا مع بعض ..

أحست بنبرة لمْ تقع موقعاً حسناً عندها، حاولت الهروب وقالت:

_ يأخي إنت ما بتحس .. أنا مرهقة .. حيلي ما شايلني.. اليوم كله حايمة زي كلب الحر .. وجاي تقول لي عازمك غداء برة .. وكت حاسس بي مالك ما جبت دليفري .. ولا عشان حشيت بطنك بي سلطة أسود ..

نظر إليها نظرة حائرة، لِمَ هذا القصف العشوائي؟ لاحظت نظرته إليها فاستنكرتها قائلة:

_ مالك بتعاين لي؟ .. أكلني بالاي .. كان داير تمرق أمرق

بـراك .. أنـا عايـزة أنـوم .. ولمـن أصحـى عنـدي كـم قضيـة كـده عايـزة أراجعـن .. مـا فاضيـة أنـا واللـه .. وراي شـغل كتـير ..

قال فِيْ هدوء لكن بكلماتٍ حاسمة:

_ كل شيء تأجليهـو .. وعنـدك خيارين يـا تقومـي تمـشي معـاي نشـوف حياتنـا وأغديـك بـره .. يـا كـمان قومـي أوصلـك نـاس أبـوك يمكـن تلحقـي غداهـم .. لكـن هنـا عنـدي لا في غـدا ولا في نـوم ..

شعرت بالهلع، لكنها حاولت أنْ تتماسك فسألته مستفسرة:

_ تقصد شنو يعني؟ ..

أجابها بنفس الحسم:

_ سيبك مِنْ قصدي شنو .. إختاري .. بعدين بوريك ..

لمْ تعتاد هذه المواقف الحاسمة منه، حاولت أنْ تناور، فقالت:

_ خـلاص قـوم صحـي مُزنـة خليهـا تلبـس عشـان تمـشي معانـا لغايـة مـا أكمـل لبـس .. النشـوف آخرتهـا معـاك الليلـة! ..

قال بكلمات قوية:

_ لا مُزنـة لا مـازن ماشـين معانـا .. أنـا عايـزك بـراك .. ومـا دمـت ماشـة معـاي .. أنـا دايـر أعـرف .. داكـوغ وميغـسي ديـل تاعباتنـك في شـنو .. ميغـسي يـا نـورة .. المغـس المـا لاقياهـو العاقـر .. شـفتي كيـف؟

أحسـت بـالأرض تميـد تحتهـا، زلزلتهـا كلماتـه، أطلقـت لدموعهـا العنـان، لمْ يـزد سـوى قولـه:

_ أجهزي سريع أنا منتظرك بره ..

الولايات النتحدة الأمريكية - ولاية ميريلاند - يوليو 2017م

(5)

سَاكِنَةُ الَحيُ الرَاقِيْ

لمْ تعد الأشياء هي الأشياء ولا الألوان هي الألوان؛ انقلبت دنياه رأساً على عقب، وكرت مرة ثانية بزلزالها الهادم المعتاد، كأنَّها لا ترغب فِيْه فتوقفت عمداً مرة أخرى أو كأنها ماتت وانتهت وقامت قيامتها، لا شيء فِيْ مكانه القديم ولا كما تمنى أنْ يراه أو يشتهيه، حتى الأحلام التي رسمها خلال الأسبوع الماضي تلاشت دون استئذان. والدنيا تنظر إليه ساخرة وتجبره على مضغ حصرمها كما فعلت منذ خمسٍ وثلاثين سنة مضت. ناولته منديلاً ليمسح دمعة قهرٍ جرت عنوة، نظر إليها ولمْ يستطع إمساك دموعه. ارتفع صوته الباكي حتى كاد أنْ يصل إلى السماء، نظرت إلى المقعد الخلفي لتطمئن على صغيرها، أبصرته ينظر إلى خاله عابساً يريد أنْ يشاركه البكاء لعله يعزية، ابتسمت فِيْ وجهه، لكنه لا زال يغالب دموعه، وشقيقها الأكبر الذي يجلس بجانبها فِيْ السيارة يحاول أنْ يمسك عليه نفسه فلا يستطيع.

سألته بحنان الشقيقة الصغرى وهي تكاد تبكي:

_ إنت يا صابر أخوي الببكيك شنو؟ .. وأصلاً الجابك روضة ولدي الليلة شنو؟

نظر إليه وهو يحاول أنْ يكتم حزنه وقال:

_ جابني القدر الما منو هروب يا سُلافة .. جابني الموت!

لمْ يستطع أنْ يكمل، وأطلق صرخة مكتومة كادت أنْ تقتله، التفتت مرة أخرى إلى صغيرها تود أنْ تطمئن عليه، ثم عادت بسرعة تنظر إلى الطريق، سألته وقد هزتها حالته:

_ موت شنو الجابك يأخوي! .. الله يخليك لينا كلنا .. و ..

صمتت برهة كأنْ قد ألجمتها المفاجأة، ثم أردفت بصوت مضطرب:

_ إنت بتعرف ميس نجلاء؟ .. بتعرفه مِنْ وين؟ .. دي مديرة روضة حمودي ولدي .. ماتت الصباح .. إدارة الروضة اتصلت بي أجي أسوقو عشان عايزين يمشوا البكاء .. ح يقفلوا ثلاثة يوم .. بس إنت دخلك بيها شنو .. بتعرفه مِنْ وين؟

زاد نحيبه، لكنه تمتم بصوتٍ كسير:

_ بعرفه من خمس وتلاتين سنة .. كنت مسميها «ساكنة الحي الراقي» .. نحن كنا ساكنين في حي شعبي .. قبل ما يلدوك .. وقتها كنت في الثانوي وكانت في المتوسطة .. كانت الدفعة البعدنا وكانت ساكنة في الحي الراقي الجنبنا .. كانت أجمل واحدة شافته عيني.. وكنت بستناها لما تطلع من المدرسة عشان أشوفه .. دخلت كلية الآداب قسم الاجتماع في جامعة القاهرة الفرع .. ودخلت هي

الثانـوي .. وكنـت برضـو بجـي يومياً عشـان بـس أشـوفه لمـا تطلـع مِـنْ المدرسـة ..

صمت برهة كأنه يريد أنْ يستجمع ذاكرته، ثم استطرد يحكي:

_ يقـوم القـدر يلعـب لعبتـو وتلتحـق هـي بكليـة الاداب فِيْ نفـس الجامعـة بـس في قسـم الفلسـفة .. كنـت بشـوفه يومـي عـلى اللـه .. كانـت حديـث الجامعـة .. وكان الشـباب متلمـي حولهـا زي الضبـان في العسـل .. أنـا الوحيـد الكنـت بعايـن ليهـا مـن بعيـد .. مـا قـدرت أصـلاً أقـرب ليهـا .. كنـت شـايفه أبعـد مـن كوكـب زحـل .. كانت بالنسـبة لي بـس «سـاكنة الحـي الراقـي» .. كان ده يكفينـي .. وكان يكفينـي أشـوفه وأشـوف جمالـه .. في الوقـت ده كنـت اشـتغلت في البنـك .. لأنـو أغلـب محاضراتنـا كانـت في العـصر والمسـاء .. عشـان كـده مـا كان فـارق معـاي ..

صمـت برهـة يسـتجمع فيهـا شـتات نفسـه وقـد انتظمـت أنفاسـه بعـض الـشيء، ورسـم عـلى شـفتيه ابتسـامة حزينـة، وأردف:

_ مـرة كنـت في الكافتيريا بشـتري لي في سندوتشـات وعصـير ليمون.. سـمعتها بتتكلـم وراي .. اتلفتـه لقيتـه في وشي .. الكبايـة وقعـت منـي والسندوتشـات طـارت .. واتربكـت ومـا عرفتـه أسـوي شـنو ..

صمـت مـرة أخـرى برهـة زاد فيهـا دمعـه دون أنْ يصـدر صوتـاً، ثـم لملـم إليـه نفسـه، وأكمـل يحكي:

_ .. لمـا وصلتـه سـنة تالتـة هـي كانـت في تانيـة .. قريـب نهايـة

السـنة جيـت داخـل الجامعـة لقيـت النـاس كلهـا جايطـة .. البنـات فرحانـات .. والأولاد بـين بـين .. وسـمعتهم بباركـوا ليهـا .. وشـفتها وياريتنـي مـا شـفتها .. بعدهـا عرفتـه إنهـا اتخطبـت لي ود عمهـا .. وإنهـا حتعرسـوا فِي الإجـازة وجايـز تخـلي الجامعـة وتمـشي معـاه أوروبـا تكمـل دراسـتها هنـاك لأنـه الملحـق الثقـافي في واحـدة مِـنْ الـدول الأوربيـة .. أنـا مسـخت عـلي الجامعـة .. كل يـوم أشـوفه فرحانـة كأنهـا منتظـرة الإجـازة تجـي عشـان تعـرس .. سـبت الجامعـة ومـا كملـت دراسـتي عشـانه .. اسـتمريت في البنـك سـتة شـهور بعـد داك وغلبنـي.. سـبتو واشـتغلته فِيْ التجـارة وورت معـاي بقـى عنـدي المصنع والمصنعـين.. والبيـت والبيتـين .. لكـن مـا قدرتـه أنسـاها .. حتـى لمـن عرسـته بـت خالـك مـا قدرتـه أنسـاها .. وإنـت عارفـة عشـته معاهـا سـنة ونـص وطلبـت الطـلاق وانفصلنـا .. الحمـد للـه مـا ولدتـه منهـا ..

صمـت قليـلاً والتفـت إلى الخلـف حـاول أنْ يبتسـم للطفـل، ثـم عـاد إلى حالـه مِـنْ الحـزن وأكمـل:

_ مِـنْ أسـبوع لاقيتـه واقفـة قدامـي فِيْ بقالـة النيلـين الفـي شـارع بيتنـا القديـم .. أصلـو أنـا بمـشي ليهـا طـوالي لأنـو صاحبـه كان جارنـا فِيْ الحـي الشـعبي ونحنـا أصحـاب مـن زمـن نحـن عيـال صغـار .. وسـمعتها بتمتـم باسـمي وتقـول لي: «صابـر .. إنـت حـي في الدنيـا دي» .. ومـا صدقتـه .. مـا صدقتـه إنهـا بتعـرف اسـمي .. ولا صدقتـه إني بعـد الزمـن ده كلـو أشـوفه تـاني ..

أخـرج بعـض الأوراق مِـنْ جيبـه، تبـدو كالخطابـات القديمـة، وقـال مسـتطرداً:

_ سلمته عليها لأول مرة في حياتي .. سألتني بتعرف اسمي يا صابر؟ .. قلت ليها أيوه .. إنت نجلاء ساكنة الحي الراقي.. ضحكت.. والتقينا .. حكت لي كل شيء فضقت بغبائي وكرهت نفسي.. قالت أنها كانت بتشوفني واقف قدام المدرسة المتوسطة.. في الأول ما انتبهت لي .. لكن بعد فترة عرفت إني بقيف عشانه .. وتأكدت لمن شافتني مستمر حتى بعد عرفت إني دخلت الجامعة.. في الجامعة استغربت أني ما عايز أتكلم معاها ..

صمت مرة أخرى لوهلة، ثم قال:

_ وقالت لي عرفت إنك خليت الجامعة .. وطبعاً عرفت إنك خليته عشاني لأني اتخطبته لي ود عمي .. فتشت عليك وعرفته إنك شغال في البنك .. لكن لما وصلت البنك لقيتك سبتو .. كنت عايزه أقول ليك أرجع تم قرايتك .. أنا فسخت خطوبتي .. بعدها ما لقيتك .. سألتها يعني عرستي راجل تاني .. قالت لي ما عرسته كلو.. كلو .. سألتها لي .. قالت لي باين عليك كبرته يا صابر .. المهم.. اتفقنا نتلاقى تاني .. وفعلاً اتلاقينا .. وأدتني الجوابات الثلاثة ديل وقالت لي لمن تقراهم حتعرف أنا لي ما عرسته .. طلبتا منها إننا نعرس ونعوض ما فاتنا .. وافقت واتفقنا أجيها الليلة عشان تورييني متين أقابل أهله .. جيت لقيته ماتت .. بعد كل ده .. ماتت وفاتت خلتني .. المرة دي هي الخلتني ..

وصلا إلى بيتها، أنزلت ابنها، تناولت منه الخطابات الثلاثة، ودعته للدخول. طلبت منه مفاتيح سيارته، نادت على زوجها وهمست فِيْ أذنه ببضع كلمات. دلفوا إلى داخل المنزل، قدمت له

عصـيراً مثلجـاً، وقالـت لـه:

_ اسـتغفر اللـه يأخـوي .. مـدد رجليـك وهـون عليـك ربنـا يرحمـه.. عبـد الرحمـن حيمـشي يجيـب عربيتـك وحيسـوق معاهـو واحـد مـن أصحابـو ..

أومـأ برأسـه مذعنـاً، دخلـت غرفتهـا الخاصـة بعـد أنْ عهـدت بابنهـا للخادمـة، وجلسـت عـلى طـرف سريرهـا المـزدوج، رتبـت الخطابـات الثلاثـة حسـب تأريخهـا، وبـدأت فِيْ قـراءة الخطـاب الأول:

«عزيـزي صابـر .. السـلام عليكـم .. اسـمح لي بـأنْ أصفـك بعزيـزي .. فأنـا أكتـب لنفـسي بأكـثر مـما أكتـب لـك دون أنْ أعـرف كيـف أو متـى سـتجد هـذه الرسـالة لتقرأهـا .. لكنهـا – إن وصلـت إليـك – سـتحمل لـك الكثـير مِـنْ المعـاني التـي كانـت غائبـة عنـك؛ لقـد انتظـرت منـك خطـوة منـذ زمـن بعيـد .. منـذ كنـا نحـاول أنْ نتخلـص مِـنْ شرنقـة الطفولـة .. لكـن الخطـوة لمْ تـأت أبـداً .. لقـد كنـت أراك تقـف وحيـداً بعـد انتهـاء اليـوم الـدراسي .. لمْ انتبـه بـادئ الأمـر .. لكننـي كأي أنثـي أدركـت بمـرور الأيـام أنـك تقـف مِـنْ أجـلي وربمـا تقـف لي أجـلاً .. أسـعدني ذلـك لكننـى لمْ أتبينـه .. ولأكـون صادقـة معـك .. لمْ أدرك لِـمَ سـعدت بذلـك .. ثـم مضـت بنـا الأيـام وأنـت تنتظـر مـروري أمامـك حتـى اعتدتـك .. لمْ أعـرف مَـنْ أنـت .. ولمْ أفهـم لِـمَ كنـت أتعمـد أنْ أظهـر فِيْ كامـل هندامـي وأنوثتـي أمامـك رغـم ضفائـر الطفولـة .. ثـم انتقلـت إلى المدرسـة الثانويـة .. لمْ يكـن انتقـالاً علميـاً فقـط بـل كان انتقـالاً عضويـاً .. فقـد أدركـت فِيْهـا أنوثتـي الكاملـة .. كان أكـثر مـا يعجبنـي فيـك أصرارك عـلى انتظـاري .. لا .. ليـس هـذا فحسـب .. بـل

عـدم محاولتـك الحديـث معـي .. بـدوت غامضـاً .. سـعدت بانتقالـك للجامعـة وخفـت أن لا أراك ثانيـة .. لكنـك بـددت مخـاوفي بالتزامـك وإصرارك .. وكنـت أراك كأني أرى مـلاكي الحـارس .. ثـم انتقلـت معـك إلى الجامعـة .. وأنـت كـما أنـت فِيْ ذات التزامـك واتزانـك .. وكنـت – ولا أزال – أنتظـر الخطـوة المأمولـة .. لكنـك لمْ تفعـل .. واكتفيـت فقـط بالنظـر إلي .. كان إحسـاسي بـك يتعاظـم .. لكننـي كنـت أضيـق بأتـون الانتظـار الحارقـة .. فِيْ الجامعـة عرفـت أنْ اسـمك صابـراً .. وأدركـت أنَّ لـك فِيْـه نصيـب .. لكنـك أطلـت عـليَّ كثـيراً .. كأنـك لا تـرى فينـي إلا لوحـة جميلـة تـود أنْ تعلقهـا فقـط عـلى حائـط مبـكاك .. أصـاب الفتـور حـماسي وضمـرت أنوثتـي .. فتعمـدت أنْ أتتبعـك حتـى سـقط منـك كـوب العصـير .. وتعمـدت دهـس «السندوتشـات» بقدمـي عـل هـذا ينطقـك .. لكنـك اكتفيـت بالذهـول .. كأنـك تسـتكثر علينـا اللقـاء أو حتـى الـكلام .. ذهبـت إلى حالـك دون أنْ تنبـس ببنـت شـفة .. ثـم تشـاء الأقـدار وأنـا فِيْ هـذه الحالـة مِـنْ اليـأس منـك أنْ أخطـب إلى ابن عمـي الموظـف بالخارجيـة .. لا أنكـرك القـول فقـد قبلـت .. وحاولـت أنْ أسـعد بنصيبـي كأي فتـاة فِيْ مثـل سـني سـاعتذاك .. وشـاهدت بـأم عينـي حزنـك المطـل مِـنْ مقلتيـك .. ولمْ أعـد أراك تنتظـر رؤيتـي فأدركـت أني أخطـأت خاصـة وأني لمْ أسـتطع قبـول فكـرة الـزواج مِـنْ غـيرك .. وبحثـت عنـك بعـد أنْ فسـخت خطبتـي وبعـد أنْ علمـت بأنـك تركـت الجامعـة لأجـلي .. لمْ يحدثنـي أحـد بذلـك لكنـه حـدس حـواء الـذي لا يكـذب .. لمْ أجـدك حتـى الآن .. ولا أدري متـى أجـدك .. لكـن ثـق .. بـأني لـن أكـون لغـيرك .. مهـما حـدث .. أتمنـى مـنْ اللـه أنْ يمتـد بي الأجـل حتـى أراك ولـو لمـرة واحـدة .. المخلصـة نجـلاء»

لمْ تستطع أنْ تكمل الخطابين الآخرين .. طوت ثلاثتهم، وتمتمت:

_ الله يصبرك يا صابر يأخوي .. طول عمرك فرحتك ناقصة ..

الولايات المتحدة الأمريكية - ولاية ميريلاند - يوليو 2017م.

(6)

يُسْعِدُنِيْ ويُشَرِفُنِيْ حُضُوْرَكُنَ!

لمْ يصدق ما قرأته عيناه، بطاقة دعوة غاية فِيْ الجمال ملفوفة بعناية، كتب عليها: «يسعدني ويشرفني حضوركن حفل العشاء المقام على شرف طلاقي مِنْ «السبيرتاية» عفواً «الزبير ود التاية»؛ والمقام فِيْ صالة «استايلشتيك» فِيْ حي الزمرد على الشارع العام جوار مدارس العِمارة وذلك فِيْ تمام السابعة مِنْ مساء الخميس .. حضوركن ومباركتكن تهمني؛ فقط أرجو عدم اصطحابكن الرجال مهما كانت صفتهم .. والعاقبة عندكن فِيْ المسرات». حرك البطاقة بين خنصره وسبابته وإبهامه والحيرة تكاد تقتله، لفت نظره صورة لكعكة كبيرة مِنْ خمسة أدوار تقف على قمتها عروس فِيْ ثوب زفافها وهي تدفع زوجها إلى قاع الكعكة وهو فِيْ حُلته السوداء، وقليل مِنْ لون أحمر يخرج مِنْ رأس الرجل أشبه بالدم.. وفِيْ قاعدة الكعكة الكبيرة كتبت العبارة التالية: «يلا شتت يا معتت!».

تحرك مِنْ مكانه وجلس على أريكة واسعة فِيْ غرفة نومه؛ لا زال يقلب فِيْ بطاقة الدعوة، اتكأ بظهره على الأريكة وهو لايدري أيقظ هو أم نائم. دخلت عليه زوجته عفراء وهو فِيْ حالته تلك، أبصرته يحملق فِيْ بطاقة الدعوة التي أرسلتها إليها صديقتها

نجـوى.. اصطـاد وميضـاً بارقـاً ينطلـق مِـنْ عينيهـا وهـي تطالعـه .. والتقـط ابتسـامة سـاخرة ارتسـمت سريعـاً عـلى شـفتيها لكنهـا اختفـت بنفـس السرعـة .. اقتربـت منـه .. تناولـت بطاقـة الدعـوة فِيْ هـدوء مِـنْ بـين أصابعـه .. تحركـت باتجـاه المـرآة .. وضعتهـا فِيْ مكانهـا دون أنْ تنبـس ببنـت شـفة؛ وهـو يطالعهـا فِيْ دهشـة بالغـة .. جعلـت تنظـر – مِـنْ خـلال انعـكاس صورتـه عـلى المـرآة – إلى حيرتـه المطبوعـة فِيْ بلاهـة عـلى وجهـه .. تـكاد تضحـك لكنهـا أمسـكت عـنْ ذلـك.

نهـض مِـنْ اتكاءتـه تلـك، تنـاول منشـفته واتجـه ليغتسـل مِـنْ عـرق اليـوم المرهـق، لمْ يسـتطع أنْ يمنـع نفسـه مِـنْ اسـتعادة ذلـك الوميـض اللامـع ولا مِـنْ الابتسـامات الخفيـة، جفـف نفسـه بعـد أنْ أمـضى حـوالي الأربعـين دقيقـة تحـت المـاء البـارد، خـرج إلى غرفتـه ثانيـة فوجدهـا كـما كانـت تزيـن نفسـها أمـام المـرآة. ارتدى»جلالبيـة» بيضـاء، واعتـم بعمامتـه بطريقتـه المعتـاده، وحمـل عصـاه بعـد أنْ رمـى بشـاله عـلى كتفيـه، ثـم خـرج دون أنْ يـدري إلى أيـن.

انتبهـت أخـيراً أنَّ زوجهـا لمْ يتحـدث إليهـا، كل الـذي فعلـه أنـه قـرأ بطاقـة الدعـوة، اغتسـل، ثـم خـرج. شـعرت بضيـق شـديد، تناولت هاتفهـا المحمـول، داعبـت أزراره وهـي تحـاول أنْ تتصـل بصديقتهـا وأمينـة سرهـا فاطمـة، سـمعت صـوت الجـرس يـرن، لكنـه توقـف فجـأة، انزعجـت لذلـك، حاولـت مـرة أخـرى، لكنهـا سـمعت جـرس البـاب الخارجـي هـذه المـرة، تضايقـت بشـدة وقذفـت بالهاتـف المحمـول عـلى سريرهـا ونهضـت بحنـق لـتري مَـنْ الطـارق. سـبقتها الخادمـة الأجنبيـة إلى البـاب الخارجـي؛ سـمعت صـوت صديقتهـا فاطمـة .. إنهـا هـي بشـحمها ولحمهـا تقـف أمامهـا .. كـم تحتاجهـا فِيْ

التـو اللحظـة .. رحبـت بهـا وقـد امتـلأت بسـعادة غامـرة .. أدخلتهـا إلى صالـة الضيـوف، وقامـت الخادمـة بواجـب الضيافـة كـما يجـب. لمْ تقـدر عبـير عـلى الانتظـار طويـلاً وحكـت لهـا عـما حـدث فِيْ غرفـة نومهـا وكيـف كان حـال زوجهـا بعـد أنْ قـرأ بطاقـة الدعـوة التـي أرسـلتها صديقتهـا نجـوى إليهـا، لمْ تكتـفِ بذلـك بـل ناولتهـا البطاقـة لتقرأهـا، ومـا أنْ أكملتهـا حتـى صرخـت فاطمـة:

_ صحـي نسـوان خلقوهـن مـن ضلـع أعـوج .. واحـدة يطلقوهـا بـدل تنحبـس تسـوي ليهـا حفلـة ..

أجابتها بسخرية:

_ دي الموضة يا فاطنة .. الرجال بقى ما منهم فايدة ..

قالت بحزم غاضب:

_ هييـى يـا عويـن البحـر .. سـيبن البتسـون فيهـو ده وابقـن عـشرة عـلي رجالكـن وأبـو عيالكـن .. الواحـدة فيكـن تمـرق عويناتـه وتمـد قدومـة متـل المَـرَة الطامـح وتقـول موضـة .. بي كضيماتكـن تتفجفجـن زي قشـة فَـرُّو ..

ضحكـت عبـير حتـى سـعلت بشـدة، تناولـت كوبـاً مِـنْ المـاء كان عـلى الطاولـة وتجرعـت منـه رشـفتين أو ثـلاث .. وحـين اسـتراحت قليـلاً ولمـت أنفاسـها، سـألتها مداعبـة:

_ قشة فَرُّو دي شنو كمان يا فاطنة .. الله يجازي محنك ..

أجابتها وهي تنكر معرفتها بالدنيا:

_ آآي مـا بتعرفـن قشـة فَـرُّو يـا بنـات البحـر .. مـا ياكـن زي العويـن الشـيخات فِيْ الـضرا .. أي مَـرَة فيكـن تجيـب قَدَحَـه للـضرا بي مُلاحـة .. النـاس تـأكل المُـلاح السـمح المسـوِنو بشرمـوط الغـزال والمكنفتـه ولا الدامرقـة والمعمـول بالسـمن فِيْ اللـوال تـب .. والشـين أم جلقيتـي ونـاس أم بُلـط وبصلايـة وألِمِـي وضرابـة النـاس بتأكلـوا في اللاخـير تتمـى بيهـو جُوعَتَّـه .. أنـتن يـا عويـن الخرتـوم بقيـتن زي المُـلاح الشـين .. تفرحـن للطـلاق .. سـجم أمكـن ..الواحـدة فيكـن مـا بتعـرف الألـف اللحمـر مِـنْ الـواو الضكـر تجـن تفتشـن لي حفلـة طـلاق

شـعرت بـشيءٍ مِـنْ الضيـق، لكنهـا حاولـت أنْ تخفيـه، وقالـت وهـي تتأفـف:

_ شنو أم جلقيتي وأم بُلط .. يا بت إنتي فِيْ الخرطوم يا بت الحلال ..

لمْ تهتم بما تقول؛ لكنها قالت:

_ صاحبتك دي عُورَتَّه شِنِو؟

استطردت لما أحست بعدم فهمها لما تقول:

_ يعنـي شِـنْ سَـوَّت شـان يطلقوها وتعمـل ليها حفلة مِنْ المغسـة ..

حكـت لهـا عـنْ زوجِ نجـوي صديقـة عمرهـا، وكيـف أنـه لا يـرد لهـا طلبـاً .. ومشـكلته الوحيـدة أنهـا لا ترغـب فِيْ المزيـد مِـنْ الأطفـال .. اكتفـت بطفلـين فقـط .. لـذا هـي لا تـرضى أنْ يلمسـها .. وحـين ضـاق

بهـا طلبـت الطـلاق .. فهـي صاحبـة «الجلـد والـرأس» ..

أجابتها:

_ شـوفي يـأم رويسـن متـل القرقريبـة الراجـل ليـه تـلات كرعـين .. اتنـين للمـشي .. واحـدة للرفثـي .. كان غليتيهـن بينقلـب عليـك كان بـصرف عليـك كان بتـصرفي عليـه .. سـيبك مِـنْ صاحبتيـك ووالفِـي راجلـك وِلِـف ومـا تبقـى متـل البقـرة العـورة تسـيب المـراح وتمـشي تحـف بي بـرة الزريبـة .. راجلـك مـا عجبتـو الحفلـة دي .. أدرئي عُورتَّـك.. وغتـي قدحـك ..

صمتت برهة ثم قالت:

_ أسـمعي كلام الببكيـك مـا تسـمعي كلام البضحـكك .. أهلنـا الكبار بقولـوا الأحـلى منـك قـوت مـا تعـاشي والأطـول منـك بـاع مـا تمـاشي .. ومـا تبقـي زي الحـمار الضكـر الـلي يكرمـك لمـن يجـي يبـول يفتـح رجليـه وبعـد مـا يبـول اللـه يكرمـك يجـر رجليـه يفجخ بيهـا بولـو ذاتَّه

سألتها باستغراب:

_ يعني شنو يا فطومة؟

أجابتها:

_ بـدور أقـول مهـما كان الراجـل برضـو مُطرَقُـه لاحـق العَسـل .. راجلـك طَوطِـوِي فِيْ عِبِـك وامـشي بيهـو لي قـدام زي بنـات سـعدان .. شـان مـا تلحقـي صاحبتـك ..

ضحكت وهي تسألها بدلال:

_ بنات سعدان ديل منو كمان؟

نهضت واقفة، وقالت وهي تبتسم بسخرية:

_ سجمكن يا بنات البحر .. ما بتعرفن بنات سعدان .. سمح.. بتعرفن الخيل .. ياهِن بنات سعدان .. الله يهديكن .. أها قيلي طيبة يا ست الشدرة

وقفت توادعها وهي تضحك، تحركتا حتى الباب، وعادت وهي تستعيد كلمات هذه المرأة الحكيمة، تذكرت شكل زوجها وهو تنظر إليه مِنْ خلال المرآة، تناولت بطاقة الدعوة، قرأتها مرة ومرتين ثم مزقتها ووضعتها على الطاولة بشكلٍ ظاهر، ثم دخلت إلى غرفتها تنتظره بشوق.

الولايات المتحدة الأمريكية - ولاية ميريلاند (أغسطس 2017م).

(7)

الخُرْطُوْمُ 2100

كان بحاجة إلى الراحة أو إلى شيءٍ مِنْ الراحة بعد يومين مضنيين قضاهما فِيْ التسوق وشراء بعض الهدايا لأمه وأبيه وأخواته وإخوانه وعتراتهم، وكان بحاجة إلى قضاء بعض الوقت مع الأهل والصحاب والتسكع بين الجروف وشاطئ النيل وتنشق رائحة التراب والوطن وعرق أهله، وكان بحاجة إلى تغيير كامل فِيْ أنماط حياته بعد هذه السنوات الطوال التي قضاها فِيْ الدراسة والتدريس والعمل الشاق المضني فِيْ المنافي بلا إجازة أو كسرٍ للرتابة والروتين. كان بحاجة إلى استبدال «تكشيرة» اللا وطن بابتسامة الوطن. جلس بجانب ابنه الذي يقود السيارة إلى مطار هيثرو .. تمدد على كرسيه والسيارة تدوس بدواليبها على شوارع لندن كأنَّها تريد أنْ تؤكد لها بأنَّه الوداع الأخير للبلاد التي تموت مِنْ البرد حيتانها كما وصفها الأديب العالمي الكبير. ابتسم ابتسامة مغرورة وهو يرخي جسده حاول أنْ يأخذ قسطاً مِنْ الراحة قبل امتطاء طائرته إلى الخرطوم.

ارتخت عضلاته بعض الشيء واسلم نفسه لخدر النوم اللذيذ فرأي فِيْ ما يرى النائم ابتسامة غاية فِيْ الروعة والجمال ترتسم على ثغر مضيفة الخطوط الجوية السودانية .. ابتسامة تنادي سودانيي المنافي إلى العودة المرجوة إلى حضن الوطن الأم، رد

ابتسامتها بابتسامة آملة، ثم حدق أكثر فِيْ روعة جمالها الأسمر الرائق فأرخت عينيها فِيْ أدب جم عُرف به أهل السودان جميعاً على اختلاف مشاربهم ومنازعهم. ثم سمع صوتها وهي تدعو بدعاء السفر فما راق له صوت بعد هذا الصوت قط. ثم تنقل ببصره فرأي عجباً، رأى أنَّ طاقم الطائرة يمثل أهل السودان كلهم بغربه وشرقه وجنوبه ووسطه وشماله، ورأي نفس الابتسامة ترتسم على الطاقم كُله لكن لكل واحدة نكهة بيئتها، كأنَّها ابتسامات فولكلورية ركب بعضها فوق بعضٍ باتقانٍ بديعٍ. أحس بأمرٍ ما لمْ يدرك له أصلاً لكنه ارتاح إليه وأحبه.

هبطت الطائرة فِيْ مطار الخرطوم، فأصابته لوثة مِنْ ذهولٍ ودهشة، ولفته أخلاط مِنْ الفرح والعجب والزهو، فها هي الخرطوم تلبس حُلة بهية مِنْ الجمال والروعة، ومطارها اكتسى بنقوش تاريخية وضعت بتراتيب زمنية بديعة .. فهناك ترى كوش وهذه علوة وتلك نبته، وبقربها كرمة، وهذه مروي، والمهدي وأنصاره، وعمارة دنقس وعبد الله جماع، وعلي دينار وفاشر السلطان، والمسبعات وأهلها، وعثمان دقنه أسد الشرق، ومحمود ود أحمد. وهذه لوحة تشبه لوحات الشرف الكبيرة كتب عليها اسماء القبائل السودانية جميعها ولغاتها وحِرفِها الرئيسية. وهذه المرفوعة بالجمال لوحة تتحدث عنْ ثروات هذه الأمة بالرسم الزيتي الرائع، وتلك لوحة أخرى ترسم المرأة السودانية بريشة أهلها. مطارنا ليس كبيراً لكنه لمْ يعد تقليدياً، ولمْ يعد رسماً هندسياً فقط بلْ هو بوابة مُتحفية تدخل مِنْ خلالها إلى رحاب أفضل شعوب العالم. لا يوجد جمارك .. يتلقاك المسئولون باتسامات رائقة ليس لها فِيْ وطأة الحياة ونزقها .. للمواطن السوداني عدة

نوافذ يمكنه فِيْها الانتهاء مِنْ الجوازات وغيرها مِنْ الأمور .. ولأنك تحمل جوازاً سودانياً فهناك سيارة تنتظرك لنقلك مِنْ المطار إلى حيث تريد إنْ كنت مِنْ سكان الخرطوم العاصمة الإدارية الجديدة .. أما إنْ كنت مِنْ سكان الولايات الخمس الأخرى فهناك مترو ينقلك إلى محطة السفر الرئيسية والمسماه ميناء السلطان على دينار البري .. ويمكنك الإنتقال مِنه إلى حيث تريد عنْ طريق القطار ذي الخطوط الأربعة فالخط الأخضر هو القطار الذي ينتقل عبر الولاية الوسطى إلى جنوب البلاد، والخط الأصفر هو الذي ينقلك إلى الولاية الشمالية والخط الأزرق هو الذي ينقلك إلى ولاية الشرق، والخط الأبيض هو الذي ينقلك إلى ولاية الغرب أما الخط الأسود فهو خط دائري ينقل الناس بين أطراف الولايات التي تحد العاصمة الإدارية الخرطوم. كما أنْ هناك حافلات كبيرة تنقل الناس أيضاً عبر طرق واسعة معبدة بأسلوبٍ هندسي متقن وتحفها الخضرة مِنْ كل جانب.

امتطي سيارته وعجب لتهذيب السائق الذي استقبله كأفضل ما يكون وحمل عنْه أغراضه ووضعها بعناية على السيارة، ثم استمرأ الابتسام وهو يسأله فِيْ أدبٍ جم عنْ وجهته، ثم انطلق فِيْ هدوء سلس. لاحظ أنَّ السائق قد أدار له إحدى الأغنيات التي ترحب بعودة المغتربين والمهاجرين، كما لاحظ أنْ السائق يقود سيارته بمنتهى الهدوء والالتزام بقواعد المرور. ليس هذا فحسب فالشارع كله منسجم وينساب فِيْ دلال .. ولاحظ أيضاً أنَّ المحطات المعدة لوقوف الحافلات الكبيرة غاية فِيْ الجمال .. وأنَّ أعداد الناس فِيْها لا يتجاوز الشخص أو الشخصين. يبدو أنَّ الناس يفضلون المترو على الحافلات الكبيرة .. هكذا حدث نفسه وهو ينظر إلى الأشجار

الجميلة الخضراء التي تحف الشارع .. والمباني الرائعة التي تطل شرفاتها على الشارع العام .. اقتربت السيارة مِنْ كبري النيل الأبيض متجهة إلى أم درمان .. ما هذا؟ .. هكذا صاح بالسائق، بكل الهدوء سأله السائق: «عفواً سيدي، هلْ مِنْ أمرٍ تريدني أنْ أحققه لك؟» .. استفزه هدوء السائق لكنه تجاوز ذلك وسأله: «أين كبري النيل الأبيض؟ .. ما هذا الجسر الذي نعبره؟» .. أجابه بابتسامة رائعة: «يبدو أنك لمْ تزر الخرطوم منذ زمنٍ بعيد يا سيدي .. لقد قامت الدولة بأعمالٍ عظيمة ومِنْ بينها بناء أكثر مِنْ خمسين جسراً على مجرى النيلين ونهر النيل .. وهذا الذي نعبره هو كبري النيل الأبيض الجديد .. وقد تم العمل فِيْه منذ سبع سنوات .. ويسمى الآن جسر علي عبد اللطيف وهو كما تركته المدخل الأهم لعاصمتنا الوطنية أم درمان ..» .. أحس زهواً لا يمكن تجاوزه فِيْ نبرة صوت السائق .. حاول أنْ يختلس النظر إليه دون أنْ يسترعي انتباهه .. فخاله فِيْ اعتدال رهيب ..

ولجت السيارة إلى مدينة أم درمان .. أحس فِيها تغيراً ما .. هي ليست كالخرطوم المدينة .. فيها شيء ما لمْ يدركه .. هي أيضاً ليست كما تركها .. سأل سائقه: «هلْ هذه أم درمان التي تركتها منذ ثلاثين سنة؟» .. أجابه السائق بذات نبرة الزهو التي أحسها سابقاً: «هي وليست هي يا سيدي .. أعني هي أم درمان بنكهتها التي تركتها .. لكنها تطورت كثيراً مِنْ حيث الشكل .. وقد كلف ذلك الدولة أموالاً طائلة» .. قاطعه سائلاً: «كيف ذلك؟.. وماذا تعني بهي وليست هي؟» .. أجابه بثقة: «لقد أرادت الدولة الاحتفاظ بكل شيء أمدرماني قديم وفِيْ الوقت نفسه أنْ تطور المدينة فِيْ كل شيء .. لذا جمعت كل الفنانين والمعماريين

والمهندسين.. وشرح لهم المسئولون ما يريدون .. ووفرت لهم كل المعينات .. لذا فأنت سترى أم درمان وهي تحمل كل عبقها القديم كمدينة قديمة حديثة مثل لندن القديمة الحديثة وروما القديمة الحديثة وأثينا القديمة الحديثة أو كقرطبة القديمة الحديثة.. لكنها لن تكون كدبي الحالمة أو نيويورك الصاخبة أو طوكيو الفاتنة» .. بهرته كلمات السائق العجيب وتمددت ابتسامته حتى اكتست بذات الزهو الذي أحسه فِيْ نبرته .. وتمتم فِيْ دواخله: «أين أنا؟ .. هلْ أنا فِيْ تلك البلاد التي تركتها قبل ثلاثين سنة؟» ..

دمعت عيناه وعلا صوته بالبكاء .. كأنَّه يريد أنْ يغسل به أدران المهاجِر والمنافي، أحس بيدٍ تهزه فإذا هي يد ابنه وهو يسأله مستفسراً: «ما بك يأبي؟ .. لِمَ تبكِ؟» .. مسح دموعه بيديه.. وقال يطمئن ابنه: «.. لا شيء .. لا شيء يا بُني .. أين نحن الآن؟».. أجابه: «لقد وصلنا مطار هيثرو يأبي ..» قطع حديثهما رنين جرس المحمول .. ضغط على الزر الأخضر وأجاب» «السلام عليكم .. مَنْ؟» .. سمع صوت أبيه مِنْ الجانب الآخر يقول: «ألم تعرفني يا بُني .. هذا أنا أبوك حامد» إعتدل فِيْ جلسته وقال: «مرحباً أبي .. كيف حالكم؟ .. وكيف حال أمي؟» .. أجابه الأب بصوتٍ مهزوم: «الحمد لله يا بُني .. جميعنا بخير .. ووالدتك أيضاً وقد أوصتني أنْ أقول لك .. لا تفكر فِيْ العودة أبداً فقد أكلنا لحم الحمير .. وتشاجرت كلابنا على قطع العجور» .. صمت وأغلق هاتفه ونظر لابنه والدمع بين جفونه يرغب فِيْ الهرب .. وقال له: «عُد بنا يا بُني .. لا فائدة ترجى».

ميريلاند - الولايات المتحدة الأمريكية (نوفمبر 2014م).

(8)

حِكْمَةُ الشِيْخُ

«الفكرة مقتبسة مِنْ حكاية لمْ نعرف صاحبها أو راويها الأصل»

كان يضاحك زوجته وهما يتسكعان فِيْ شوارع المدينة الكبيرة الواسعة. مأخوذان بنشوة الصبا وفتوة الشباب. يطئان الأرض بأقدامهما ويتبختران فِيْ مشيتهما ويأملان فِيْ مستقبل أيامهما ويرسمان ويحبران أوراق الغد المشرق. بحثا عنْ مقعدين يجلسان عليهما فِيْ إحدى ساحات وسط المدينة عند أحد المطاعم المتميزة فِيْ تلك الناحية. جلس الزوج على مقعدٍ خلف إحدى الطاولات بينما جلست الزوجة على الكرسي المقابل تنظر إليه فِيْ ولهٍ وحب. يبدوان حديثا العهد بالزواج والحياة، لكنهما سعيدان بما يفعلان وربما سعيدان بتواجدهما مع بعضهما. كانت جميلة غيداء وكاحلة، تسر الناظرين. وكانت تلبس بنطالاً قصيراً وضيقاً يظهر عجيزتها، وقميصاً لا هو بالساتر ولا بالفاضح، يظهر مِنها الذراعين والصدر. وكان يلبس رداءاً قصيراً وقميصاً أخضر اللون. جلسا يتحدثان بما يأملان فِيْ هذه الحياة. ويمتطيان صهوة الحب ويتناديان بشهد الهوى. سألا النادل حاجتهما مِنْ الشراب والطعام، فابتسم لهما فِيْ أدب وجد فِيْ خدمتهما.

جلس بجانبها على الطاولة المجاورة شيخ تخطى الستين مِنْ

العُمر، ويرتسم على وجهه ذقن أكسبه الكثير مِنْ الوقار والاحترام. كان الشيخ يرتدي جلباباً أبيضاً نظيفاً لكنه قديم، وقد لف عمامته بعناية فائقة. لمْ تمض لحظات حتى بدل الشيخ كرسيه واقترب كثيراً مِنْ الزوجة، ثم وضع مرفقيه على الطاولة واسند ذقنه على راحة يده اليسرى وحدق فِيْ الزوجة وجعل يتفحصها مِنْ أخمص قدميها إلى شعر رأسها. أحست الزوجة بعين عجوزٍ دخيلة تتجاوز المسموح إلى غيره، وتعري جسدها باشتهاء أو هكذا بدا لها. تضايقت كثيراً وحاولت أنْ تخفي محاسنها دون جدوى. والشيخ العجوز لا يغض عينيه الفاحصتين عنْها. أحس الزوج بضيق زوجته ثم أدرك نظرات الشيخ تلهب جسدها. اشتعلت أتون رجولته واستعرت أخلاط الغضب والضيق والحِنق. نهض مِنْ مكانه واتجه ناحية الرجل فقفز قلب زوجته مِنْ أضالعها وحاولت أنْ تمسك به دون جدوى .. تقدم باتجاه الشيخ العجوز وأمسك بتلابيبه وقال له والشرر يتطاير مِنْ عينيه، وفيالق الشر وشياطينه تأخذه أخذ السوار للمعصم :

_ ما هذا أيها الشيخ القذر؟ .. ألا تستحي .. وتغض طرفك عنْ زوجتي أيها الوقح .. عيب عليك أنْ تفعل هذا .. رجل فِيْ مثل عمرك كان واجباً عليه أنْ يكون الآن فِيْ المسجد مصلياً .. لا فِيْ هذا المكان عابثاً ..

ابتسم الشيخ العجوز .. وضغط على يدِ الزوج الشاب حتى صرخ وجفل وأفلت يديه، وقال فِيْ حزم غريب:

_ لنْ أسبك أيها المغرور .. ولكن العيب ليس عيبي إنما هو

عيبـك .. وأنـت تأخـذ امرأتـك عاريـة .. وتتجـول بهـا فِيْ الطرقـات .. خروجهـا معـك بهـذه الملابـس .. يعنـي قبولـك أنْ ينظـر الآخـرون إلى مفاتنهـا .. صحيـح أنـك حـر ويمكنـك أنْ تسـمح لهـا بالخـروج عاريـة.. لكـن! مـا دمـت تقبـل هـذا .. فـلا تبتئـس إنْ حـدق فِيْهـا عجـوز مثـلي.. أنـت تركتهـا تفعـل مـا تشـاء .. وتلبـس مـا تشـاء .. والمعـروض مِـنْ جسـمها هـو حقنـا نحـن .. والمسـتور مِنْهـا هـو حقـك وحـدك .. فانظـر مـاذا تريـد مِنْهـا ليصبـح حقـك كامـلاً .. هـلْ فهمـت مـا أعنـي أيهـا الغافـل؟

تحسـس الـزوج يـده وقد عقـدت جبينـه الدهشـة وتلبسـه العجب. ونظـر إلى الشـيخ العجـوز وهـو لا يـدري هـلْ كان لنظراتـه معنًـى غـير الوقاحـة وقصـداً غـير العبـث؟ مـاذا يسـتطيع أنْ يفعـل أمـام منطـق كلماتـه؟ اقتربـت مِنْـه زوجتـه وهـي تهـرب بنظراتهـا حتـى لا تلتقـي نظـرات العجـوز، سـحبت زوجهـا فِيْ هـدوء. التقيـا النـادل فدفعـا مـا عليهـما وخرجـا.

لمْ ينبـس ببنـت شـفه منـذ دخولـه البيـت. تمـدد عـلى سريـره وهـو يسـترجع صـورة الشـيخ العجـوز. لا تبـدو عليـه الوقاحـة، بـل يكتسـيه الوقـار والـورع. إذن! لِـمَ كان يحـدق فِيْهـا بـكل هـذه الشـهوة؟ .. مـاذا كان يعنـي بسـؤاله: «هـلْ فهمـت أيهـا الغافـل؟» .. لمْ يسـتطيع الإجابـة عـلى أي مِـنْ الأسـئلة التـي اجتاحـت عقلـه كـما تجتـاح النـار الهشـيم. حاولـت زوجتـه أنْ تواسـيه، أحسـت بأنهـا كانـت سـبباً فِيْ هزيمتـه. اعتـذرت لـه بشـدة وتحـدرت دموعهـا غـزاراً، لكنهـا لمْ تفلح فِيْ تهدأتـه. نهـض مِـنْ عـلى سريـره فجـأة وارتـدى ملابـس وقـورة، سـألته إلى أيـن؟ .. لمْ يجبهـا لكنـه خـرج.

ما أنْ رآه حتى تبسم ونهض مِنْ على كرسيه مرحباً:

_ كنت متأكداً مِنْ عودتك .. لذا انتظرتك فِيْ نفس المكان .. لا تبدو ديوثاً .. لذلك كنت متيقناً مِنْ عودتك .. أعرف أنك قلبت ما حدث بيننا فِيْ رأسك ألف مرة ومرة .. وأنَّ جسدك لمْ يألف الرقاد بعد الذي حدث .. أليس كذلك؟

لمْ ينكر، بلْ استسلم لكلماته وأجابه فِيْ صوتٍ خفيضٍ:

_ نعم .. كان صعباً عليَّ أنْ أنام ملء جفوني بعد الذي حدث معك .. لِمِ كنت تحدق فِيْ زوجتي أيها الشيخ؟

أجابه، والابتسامة الوادعة تملأ وجهه:

_ لا تخف يا بُني .. لمْ يكن الأمر كما بدا لك .. لقد أدركت أنكما فِيْ ريعان الصبا وفتوة الشباب .. فأردت أنْ أختبركما فِيْ قوة .. لا يجوز أنْ تترك امرأتك تخرج بمثل هذا الذي كانت تلبسه .. ولا يجوز لك التعامي عنْ الخطأ .. وقد أحسست بصدق حبك لها فأردت أنْ اقول لك حافظ على نعمة الله عليك .. فهلْ فهمتني الآن؟

تسارعت دمعة إلى الهروب مِنْ بين جفونه، وقال فِيْ صوتٍ خفيض:

_ لقد كان اختباراً عسيراً أيها العجوز .. كان قاسياً وصادماً ..

ضحك الشيخ حتى بانت نواجزه، وقال للزوج الشاب:

_ لكنـه جـاء فِيْ وقتـه .. قـم إلى زوجـك الآن فـما عـاد وجـودك معـي ذي فائـدة .. بلغهـا تحيـاتي .. وسـأسرك بـسر .. أنـا مصـاب بمـد النظـر ..

نهـض الـزوج وقـد أزاح حجـراً ثقيـلاً مِـنْ عـلى صـدره، واتجـه صـوب داره.

ميريلاند - الولايات المتحدة الأمريكية (يناير 2014م)

(9)

حِيْنَمَا تَبْكِيْ الأَقْدَارُ

تدحرجت الكرة باتجاهه، أوقفها بقدمه ثم أمسكها بين يديه وجعل ينظر إليها نظرة العاشق الولهان، ورفع عينيه يرجو أنْ يرى المكان الذي تدحرجت مِنْ عليه. رأى طفلاً صغيراً - كأنه بين السابعة والثامِنة - ينظر إليه مستجدياً أنْ يناوله الكرة. ابتسم فِيْ وجه الطفل وأشار إليه أنْ يقترب. داعب شعره الكثيف والمبعثر فِيْ غير نظام وناوله إياها، ثم سأله: «أتجيد فنون الكرة؟». هز الطفل الجميل رأسه، وأتبع هزه مجيباً: «نعم، أجيدها يا عمي.» وبدأ يظهر مهاراته وهو ينظر إليه. تدحرجت الكرة مرة أخرى باتجاهه، رفعها إليه فِيْ مهارة مستخدماً قدمه، وبدأ فِيْ تنطيطها، واللعب بها كيف شاء، والطفل فاغراً فاه تأسره الدهشة ويحيطه العجب، ويزين وجهه الابتسام. سأله: «ما رأيك؟» أجاب الطفل: «إنك بارع جداً .. أين تعلمت هذه الفنون؟». نظر إليه وقال: «تعلمتها منذ زمنٍ بعيد يا بُني .. لكنني تركتها .. وقد ندمت كثيراً لأنني فعلت ذلك». سأله:»هلْ تعلمني هذه المهارات يا عمي؟» . ابتسم فِيْ وجهه وقال: «لست أدري يا بُني .. لست مِنْ هذه الناحية .. لقد عدت لتوي مِنْ مكانٍ بعيد .. ولا أعلم إنْ سيطيب المقام لي هنا أم لا.» سأله: «هلْ معك ورقةً وقلماً؟» أجابه وهو يبحث فِيْ جيبه: «نعم، لِمَ؟» .. قال الطفل: «سأكتب

لـك رقـم هاتـف منزلنـا، أسـكن أنـا وأمـي فقـط، فـإن قـدر لـك البقـاء فِيْ هـذه الناحيـة، فـإني أرجـوك أنْ تعلمنـي فنـون كـرة القـدم .. اسـمى مهنـد، وأنـت مـا اسـمك؟» .. أجابـه بعـد استحسـن تصرفـه: «يدعوننـي عثـمان.» .. اتسـعت ابتسـامة رائعـة عـلى ثغـر الطفـل الـذي أخـذ الورقـة وكتـب اسـمه ورقـم الهاتـف، ثـم اسـتأذنه ومـضى إلى حـال سـبيله.

مـر شـهران وعثـمان يـتردد بـين البقـاء فِيْ هـذه الناحيـة والرحيـل عنْهـا، لا يـدري مـاذا أتى بـه إلى هنـا ولا يـدري لِـمْ لا يرغـب فِيْ الرحيـل عنْهـا، أخـرج حافظـة نقـوده، فانسـلت ورقـة مِنْهـا ووقعـت عـلى الأرض. رفعهـا وفحصهـا، فـإذا عليهـا اسـم مهنـد ورقـم هاتفـه. تذكـر الطفـل ابـن السـابعة أو الثامنـة، أحـس بانقبـاض صـدره، أدار أزرار هاتفـه المحمـول. يـرن جـرس الهاتـف مِـنْ الناحيـة الأخـرى، لمْ يـرد أحـد عـلى مكالمتـه، صمـت الرنـين مـرة واحـدة. قـارن بـين الرقـم الـذي اتصـل عليـه والرقـم المكتـوب عـلى الورقـة، هـي نفـس الأرقـام، لا يوجد خطـأ إذن. كـرر المحاولـة مـرة أخـرى، لكـن لا أحـد يـرد. أحـس ببعـض الضيـق، لكـن لا حيلـة لـه. تمـدد عـلى أريكتـه التـي اعتـاد الجلـوس عليهـا عنـد مدخـل البيـت، وحـاول اسـتعادة صـورة مهنـد. همـس قائـلاً: «إنَّ هـذا الطفـل موهـوبٍ بالفطـرة، لمسـاته جميلـة، يتعامـل مـع الكـرة بحنـانٍ وعطـف، لكنـه لا زال خامـة لمْ تتشـكل، يحتـاج إلى مَـنْ يعلمـه فنـون كـرة القـدم». صمـت برهـة ثـم قـال بصـوتٍ عـالٍ كأنـه يريـد أنْ يُسْـمِعَ نفسـه: «سـأعلمه، أنـا أيضـاً أحـب كـرة القـدم، وقـد فشـلت أنْ أكـون لاعبـاً عظيـماً، سـأضع كل خـبرتي تحـت تصرفـه، وسـيصبح مهنـد أفضـل لاعبـي العـالم .. إنْ شـاء اللـه».

رن جـرس هاتفـه المحمـول، فدعـس عـلى الـزر الأخـضر دون أنْ

يـرى رقـم المتصـل، وأجابـه محييـاً: «مرحبـاً، هـلْ مِـنْ خدمـة أؤديهـا لـك؟». سـمع صوتـاً نسـائياً مِـنْ الجانـب الآخـر يسـأل: «مرحبـاً .. الحقيقـة أننـي أرد عـلى مكالمـة سـابقة ظهـرت عـلى كاشـف هاتفـي، مَـنْ المتحـدث؟». اعتـدل عثـمان فِيْ جلسـته وقـال: «نعـم .. نعـم .. هـلْ هـذا رقـم هاتـف الطفـل مهنـد؟» . أحـس بأنهـا كتمـت ضحكـة مـا، لكنهـا أجابـت: «نعـم هـذا منزلـه وأنـا أمـه .. لا تبـدو طفـلاً فِيْ مثـل سـنه، فمَـنْ يطلـب مهنـداً؟» . تلعثـم قليـلاً، لكنـه اسـتعاد نفسـه وقـال: «نعـم .. يـا سـيدتي .. لقـد التقيتـه صدفـة وهـو يلعـب بكرتـه.. إنَّ لـدى ابنـك موهبـة فطريـة فِيْ كـرة القـدم .. وإذا أحسـن تدريبـه سـيصبح لاعبـاً عظيـماً» .. انتظـر برهـة لكنهـا لمْ تـرد، فسـألها: «هـلْ أنـت معـي يـا سـيدتي؟» .. أجابتـه: «نعـم .. نعـم .. معـك .. لكننـي لا أريـد لابنـي أنْ يكـون لاعبـاً لكـرة القـدم» .. قاطعهـا سـائلاً: «لِـمَ؟».. اجابتـه بحـزمٍ قاطـع وجفـاءٍ واضـح: «لـدي أسـبابي الخاصـة .. هـلْ لديـك مـا يمنـع مِـنْ ذلـك؟» .. تهتـه قائـلاً: «لا .. لا .. أعتـذر لتدخـلي .. إننـي جـد آسـف.. بلغيـه سـلامي .. أعتـذر مـرة أخـرى». قالـت بـذات الحـزم والجفـاء: «لا عليـك .. مـع السـلامة». أنهـت المكالمـة هكـذا. وضـع هاتفـه المحمـول عـلى حافـة الطاولـة، وسرح بخيالـه محـاولاً أنْ يرسـم صـورة مـا لأم مهنـد، لمْ يسـتطع وبـاءت كل محاولاتـه بالفشـل، لكـن شـيئاً مـا كان يدفعـه للمحاولـة ألـف مـرة ومـرة.

ومـرت شـهور أخـرى وعثـمان قـد عقـد العـزم عـلى البقـاء فِيْ هـذه الناحيـة لكنـه لا يـدري حقـاً أن كان قـد قـرر ذلـك مِـنْ أجـل مهنـد أم مِـنْ أجـل أنْ يتحـدى أمـه، أم مِـنْ أجـل ذلـك الـشيء الـذي أحسـه وهـو يهاتفهـا. لمْ يلتـق مهنـداً منذئـذ، لكنـه كان سـبباً فِيْ بقـاءه فِيْ هـذه الناحيـة، وهـذا يكفـي ليعلمـه فنـون كـرة القـدم.

وكـرت مسـبحة الذكريـات، ومـر شريـط طويـل فِيْ مخيلتـه وهـو يسـتعيد صـورة اللاعـب الفـذ عثـمان الحـاوي وهـو يطـوع الكـرة كيف شـاء. ثـم قفـزت إلى مخيلتـه المبـاراة الكارثـة، تلـك المبـاراة التـي كادت أنْ تـؤدي بحياتـه، وأصيـب بعدهـا بارتجـاج فِيْ المـخ عجـل باعتزالـه، واحتـاج بعدهـا لعامـين كاملـين حتـى تعـافى كليـة، بعدهـا خـرج مِـنْ الملاعـب وقلـوب الجماهـير إلى الأبـد.

رن جـرس هاتفـه المحمـول فتناولـه بإهـمال ودعـس عـلى زر التشـغيل، سـمع صوتهـا مرحبـاً ومعتـذراً وسـائلاً: «مرحبـاً .. أعتـذر مِنْـك لغلظتـي السـابقة .. لكـن ألا تـزال ترغـب فِيْ تدريـب مهنـد وتعليمـه فنـون الكـرة؟» .. عـدَّل مِـنْ جلسـته، ورسـم ابتسـامة رائعـة كأنـه يخالهـا تـراه، وقـال: «لا عليـك .. نعـم أرغـب فِيْ تدريبـه بشـدة .. بـل أكـثر مِـنْ أي وقـتٍ مـضى .. إنـه لاعـب كـرة قـدمٍ بالفطـرة .. و ..» قاطعتـه قائلـة: « أريـده أنْ يكـون أفضـل لاعـب كـرة بالبـلاد .. أفضـل مِـنْ عثـمان الحـاوي نفسـه ..» .. فوجـئ بهـا تذكـر اسـمه، حـاول أنْ يـرد لكنهـا قاطعتـه مـرة أخـرى: « .. دعنـا نلتقـي فِيْ عطلـة نهايـة الأسـبوع .. فِيْ ملعـب السـاحة .. سـأحضر ابنـي معـي .. إنـه أمانـة فِيْ عنقـك .. أريـده أفضـل مِـنْ ذلـك المغـرور .. هـلْ تعرفـه؟» .. تمتـم بصـوتٍ خفيـض: «نعـم .. نعـم .. أعرفـه جيـداً» .. قالـت: «إذن نلتقـي حينهـا .. مـع السـلامة». ومـرة أخـرى أنهـت المكالمـة دون أنْ يعـرف مِـنْ هـي.

وتمـضي السـاعات والأيـام بطيئـة نحـو عطلـة نهايـة الأسـبوع، ويحـس عثـمان بثقلهـا وهـو يحـاول أنْ يرسـم صـورة مـا لأم مهنـد، لكـن الصـورة لا تتشـكل. هنـاك شيء مـا فِيْ نـبرة صوتهـا لمْ يتبينـه، شيء يـدق فِيْ أعماقـه دقـاً، لكنـه لا يسـتطيع أنْ يدركـه. وضجـت رأسـه

بأسئلةٍ كثيرة، كيف عرفت اسمه؟ .. ولِمَ وصفته بالمغرور؟ .. ولِمَ تريد أنْ يكون ابنها أفضل مِنْ عثمان الحاوي؟ .. كأنها تتحدى عثمان الحاوي.

انتقل عثمان إلى ملعب الساحة قبل ميعاده بساعة، شيء ما عجل بذهابه إلى هناك. كان يلبس بدلة التدريب كاملة، نفس القميص الذي كان يرتديه فِيْ تلك المباراة المشؤومة .. كأنه قبل تحدي أم مهند، كأنه يريد أنْ يقول لها أنْ مهنداً سيصبح الأفضل.. أفضل حتى مِنْ عثمان الحاوي نفسه. أخذ معه كرة وبدأ يلعب بها فِيْ الساحة، تجمهر حوله الناس .. جميعهم يعرفه جيداً .. كان اسمه بين ألسنتهم .. لا زالوا يحبونه ويعشقون مهاراته .. سمع صوت مهند خلفه ينادي أمه: «هذا هو يأمي .. هذا هو الرجل الذي حدثتك عنه .. إنظري إليه .. كم هو ماهر!» .. التفت إلى حيث الصوت وقد رسم ابتسامة زاهية وأوقف الكرة بطريقة ماهرة استحسنها الجمهور الذي يتابعه وصفقوا لها. لكن نظراته توقفت عند أم مهند .. نظرت إليه وقد تلون وجهها بكل ألوان الطيف، همست وأنفاسها تتصاعد: «أنت! .. عثمان بشحمه ولحمه! .. يا إلهي!» .. أمسكت بيد ابنها وسحبته بعيداً .. ومضت. لا تزال المفاجئة تشله، لكنه أفاق مِنْها وجرى ناحيتهما وهو يصيح: «توقفي يا أحلام! .. توقفي!» .. وتسمرت أحلام فِيْ مكانها، وإذا هو ينظر إليها بأسىً وإذا هي تنظر إليه بألم، وعيناها تنهمران بالدموع سخاً وتسكاباً.

سألته: «ماذا أتى بك إلى هذه الناحية؟» .. أجابها: «لست أدري!».. قالت: «ولكني أدري» ثم نظرت إلى ابنها وقالت: «قدرك يا عثمان أنْ تأتي إلى هنا لتلتقي ابنك .. هذا ابنك يا عثمان ..

حين غدرت بي لمْ أكن أدرك أني أحمله فِيْ أحشائي .. أنظر إليه جيداً.. كيف يشبهك .. حتى كرة القدم يحبها كما تحبها .. حاولت أنْ أكرهك لكنني لمْ أستطع .. وحاولت أنْ أبعده عنْ كرة القدم فلمْ أقدر.. إنه مثلك تماماً يحبها أكثر مِنْي .. كلاكما تحبانها أكثر مِنْي..».. برك عثمان على ركبيه .. وضم ابنه إليه .. وقال: «هلْ هذا معقول؟.. أصدقيني!» .. قالت: «لا زلت كما أنت .. مغرور بنفسك.. لا ترى غيرها .. لِمَ لا تسأل نفسك عنْ السبب الذي يجعلني أهرب مِنْ الدنيا وما فيها لأسكن هذه الناحية!» .. قال: «لا عليك .. سأعوضكما ما فات .. إذهبي الآن .. وسآتيكما بعد ساعة واحدة وفِيْ معيتي مأذون الحي .. ليلتأم شملنا إلى الأبد هذه المرة» ..

لبس أجمل حلة لديه، أخذ المأذون والشاهدين معه، دعا بعض معارفه الجدد إلى حفل عُرسهما، وصل إلى بيتها، دفع الباب الموارب، كان مهند يبكي بحرقه، سأله: «ما بك يا بُني؟» .. أجابه بصوت منتحب لاهث: «يقول الطبيب أنَّ أمي قد ماتت» .. نظر إلى ابنه فِيْ بلاهة .. جرى إلى الداخل .. لمْ يصدق ما قاله .. لكنها كانت مسجاة على سريرها بكفنٍ أبيض.

ميريلاند - الولايات المتحدة الأمريكية (أكتوبر 2014م)

(10)

حَدَثَ فِيْ بِلادِ الكُفْرِ

اتصلت الفتاة التي لمْ تكمل السادسة عشر مِنْ عمرها برقم الطوارئ 911؛ أخبرتهم بأنْ والدها يُعاني مِنْ صعوبة فِيْ التنفس وسرعة فِيْ ضربات القلب مع ألم خفيف فِيْ الجانب الأيسر مِنْ الصدر. تبادلت معهم الحديث قليلاً ودفعت إليهم بعنوان دارهم. لمْ تمر دقيقتان، إلا ووصلت سيارة الإسعاف حتى خالتها أنها كانت تتسمع مِنْ خويصة الباب الخارجي. دخلت فتاة شقراء رائعة الجمال وتبعها شاب وسيم، رسما ابتسامتين رائعتين، سألا عنْ المريض ودلفا فِيْ سرعة إلى حيث كانْ يتمدد. تقدمت إليه الشقراء، عرفته بنفسها، ابتسامتها الرائعة دفعته إلى الابتسام رغم الألم الذي بدأ يشتد. حاول أنْ يعتدل فِيْ مرقده، أسرعا إليه يسندانه، سألته: بِمَ تشعر؟ لمْ يزد عما قالته ابنته .. قالت وقد اقتربت منه: لا بأس.. استرح .. وبدأت فِيْ الكشف عليه، بينما تحدث مرافقها عبر جهازٍ معلق على كتفه، وسرعان ما دخل آخر وفِيْ معيته نقالة .. أسرع ثلاثتهم إلى نقله مِنْ مرقده إليها. شعرت زوجته وأولاده بالخوف فسألت الزوجة إنْ كان الأمر خطيراً، فأجابتها بأنهم سيقومون بما يجب عليهم القيام به، وأنهم يحتاجون لفحوصات أخرى. طلبوا أنْ يرافقهم أحد أهل الدار على أنْ يلحق بهم الآخرون. أصرت

الأم عـلى مرافقـة بعلهـا فعـشرة العُمـر «لا تهـون إلا عـلى الكافـر». ركبـت فِيْ المقعـد الأمامـي لسـيارة الإسـعاف فِيْ نفـس الوقـت الـذي رفـع فِيْـه إليهـا. قامـت الشـقراء ومعاونهـا ببعـض الفحوصـات ورسـم القلـب مِـنْ داخـل العربـة المجهـزة، سـألته مـرة أخـرى إنْ كان مصاباً بأحـد الأمـراض المزمنـة، فأومـأ بالإيجـاب وحـدد لهـا أنـه مصـاب بـدائي السُـكري وارتفـاع ضغـط الـدم. سـجلت جميـع المعلومـات دون أنْ تفقـد ابتسـامتها الرائعـة. كان الأب المريـض ينظـر إلى الشـارع العـام وهـو فِيْ طريقـه إلى المستشـفى، تذكـر حـين أصابتـه نفـس النوبـة وهـو فِيْ قريتـه الصغـيرة، وتنـادى النـاس إلى نقلـه بسـيارة «البوكـس»؛ وكيـف أنَّ سـائقها محمـد أحمـد أبـدى امتعاضـاً فالسـاعة كانـت قـد جـاوزت الواحـدة صباحـاً، نفـس الزمـن لكـن شـتان بـين عبـوس محمـد أحمـد وابتسـامة الشـقراء الكافـرة.

وصلـت سـيارة الإسـعاف إلى المستشـفى فِيْ سلاسـة، نقلـوه برفـق، وأدخلـوه عـبر بوابـة الطـوارئ الخاصـة. توقفـت الشـقراء أمـام طاولـة اسـتقبال الطـوارئ، وتحدثـت إلى الممرضـة المسـئولة، وسـلمتها بعـض الأوراق بعـد أنْ وقعتهـا. أدخلـوه إلى الغرفـة رقـم 403 ونقلـوه إلى السريـر الأبيـض، اتسـعت ابتسـامتهم وهـو يودعونـه ويتمنـون لـه الشـفاء العاجـل. تذكـر الجملـة التـي قالهـا صديـق ود الطريفـي حـين نقلـوه فِيْ ذلـك اليـوم للمستشـفى: «زولكـم ده قـاضي تب، ألحقـوا رتبوا حالكـم، بالحالـة الشـفتها دي مـا ظنيـت يلحـق معانا صـلاة الفجر وهو فِيْ الدنيـا دي، خـلاص الـزول قطـرو صفـر، حليلنـا منهـا الدنيـا». رسـم ابتسـامة مطمئنـة كأنـه يريـد أنْ يغيـظ صاحبـه صديـق ود الطريفـي.

دخلـت عليهـم ممرضـة شـقراء أخـرى .. أكـثر جـمالاً وأرق ابتسـاماً..

رحبت بهم كأنها تعرفهم منذ سنين أو كأنها تدعوهم إلى دارها.. تمتم فِيْ سره قائلاً كأنه يتحدث إلى ود الطريفي: «الله يجازي محنك يا ود الطريفي .. ما بعرفك كان جيت معاي الليلة كت قلته شنو».. سألته نفس الأسئلة عنْ مرضه، أجابها بهدوء وقد خف الألم بعض الشيء. شرحت له ماذا يريدون منه، أخذت بطاقته، وبطاقة التأمين، ولمْ تمض دقائق معدودات حتى دخلت أخرى بجهازٍ لرسم القلب مرة أخرى، سحبت منه الممرضة الأولى دماً، وقالت: بعد قليل سيمر عليك الطبيب، نظرت إلى زوجته وقالت لها مداعبة: أراك تحبينه حباً شديداً .. لا عليك .. هو بخير .. بعد قليل سنعرف كل شيء .. لا تقلقي»، ابتسمت الزوجة وهي تنظر إلى زوجها فِيْ مودة وخجل .. تمتمت هامسة: «انتن يأمات العيون الزرق؛ عليكن بي علي نسيب النبي» .. ضحكت ابنتها الصغرى وقد سمعت ما تقوله ، سألها شقيقها: «لِمَ تضحكين؟»؛ فأجابت: «لا شيء .. تذكرت أمراً ما» ..

لمْ تمض ساعة ونيف حتى دخل عليهم الدكتور/ أ. هندرسون.. شاب فِيْ ثلاثينيات عمره .. يرسم على وجهه لحية وقورة، رحب بهم وعرفهم بنفسه وطبيعة تخصصه، وخص المريض بكلماتٍ رائعات، وقال: «مِنْ حسن حظك أنَّ جهاز رسم القلب قد التقط خللاً قلما يظهر مِنْ أول مرة، الأمر ليس سيئاً لكن يجب عليك العناية بنفسك أكثر .. أنت مصاب بما يسمى طبياً بالرجفان الأذيني .. وهو حالة أشبه بتخيل أنْ قلبك يجري دون أنْ تجري أنت .. معذرةً؛ حتى ليس كل قلبك إنما الأذينان هما اللذان يجريان دونْ أن تجري أنت أو يجري البطينان معهما .. وهذا ناتج

عـنْ عِلـة تصيـب جهـاز التوصيـل الكهـربي للقلـب .. سـنحولك إلى طبيـب متخصـص فِي أمـراض القلـب .. ليصـف لـك الـدواء الناجـع .. وحتـى ذلـك الوقـت وإنْ تكـرر حـدوث هـذه الحالـة لا تـتردد فِيْ أخـذ حبـة إضافيـة مِـنْ دواء المتبرولـول التـي تتناولهـا لضبـط ارتفـاع ضغـط الـدم.. فهـذا الـدواء يقلـل مِـنْ ضربـات القلـب .. ومـا نخافـه فِيْ حالتـك هـذه تكـوّن جلطـة أو جلطـات فِيْ غرفـة الأذيـن قـد تنتقـل إلى الرئـة أو الشريـان التاجـي فتتسـبب فِيْ انسـدادهما .. وهـذا خطـير للغايـة .. فِيْ غـير ذلـك كل شيءٍ عـلى مـا يـرام» .. ابتسـم المريـض وهـو يحمـد اللـه عـلى مـا أصابـه، ويعـو بذاكرتـه إلى مستشـفى المدينـة ويتذكـر الطبيـب الـذي تفـوح منـه رائحـة الخمـر. سـأله الطبيـب قائـلاً: «هـل تريـد شـيئاً؟» أجابـه: «لا شيء .. شـكراً» .. ودعهـم جميعـاً بعـد أنْ أذن لـه عـلى أنْ يتابـع مـع طبيـب القلـب المختـص.

انطلـق الابـن ليـأتي بالسـيارة مِـنْ مـرآب السـيارات التابـع للمستشـفى بينـما وقفـت الأسرة منتظـرة داخـل غرفـة الاسـتقبال .. فالشـتاء القـارس والجليـد المفـروش عـلى الأرض كالغطـاء الأبيـض لا يسـمحان بالإنتظـار خـارج المستشـفى. مضـت لحظـات أجابـت بعدهـا الابنـة الصغـرى عـلى هاتفهـا المحمـول، السـيارة تقـف بانتظارهـم فِيْ الخـارج. نهضـوا جميعـاً ومـا هـي إلا ثـوانٍ معـدودات إلا وانحـشروا جميعـاً داخـل السـيارة يبحثـون عـنْ الـدفء. انطلـق الابـن بالسـيارة وقـد اطـمأن عـلى أبيـه، أخـذ طريقـه إلى الشـارع العـام، شـعر أبـوه بالسـيارة تجـري مسرعـة عـلى الجليـد، حـاول أن يحـذر ولـده، لكـن سـبق السـيف العـذل؛ فقـد انزلقـت السـيارة حتـى خرجـت عـنْ مسـارها المعتـاد، سـمع الجميـع صوتـاً مكتومـاً خلفهـم، أحدهـم

يحـاول أنْ يوقـف سـياراته بضغطـه عـلى المكابـح بشـدة. لمْ يتحـرك أحدهـم مِـنْ مكانـه، كل منهـم يحـاول أنْ يتبـين أمـره، شـخص مـا ينقـر عـلى الزجـاج، لملـم الأب نفسـه وفتـح زجـاج النافـذة. سـمع رجـلاً يسـألهم إنْ كانـوا سـالمين، نـزل الأب وتأكـد مِـنْ أنَّ جميعهـم سـالمون. التفـت خلفـه فوجـد الرجـل يبسـم ابتسـامة هادئـة، ويكـرر سـؤاله عـنْ سـلامتهم. تجمهـر نفـر كثـير، لأول مـرة يـدرك بأنهـم قـد صدمـوا أحـد الأعمـدة دون أنْ تصدمهـم عربـة أخـرى. سـيارتان للشرطـة وصلتـا مـكان الحـادث. نـزل أربعـة مِـنْ رجـال الشرطـة وتوجهـوا ناحيتهـم، جميعهـم سـأل عـنْ سـلامتهم أولاً، ثـم تفرقـوا. أحدهـم أخـذ جميـع المعلومـات الخاصـة بالابـن ورخصـة السـيارة وشـهادة التأمـين. ذهـب آخـر إلى سـيارته وعـاد بعـد قليـل باسـتمارة مخالفـة حـدد فيهـا نوعهـا وزمانهـا وجميـع المعلومـات الخاصـة بالابـن. الشرطيـان الآخـران سـألا إنْ كان هنـاك مَـنْ شـاهد الحـادث. جميعهـم يسـألهم مـرة واثنتـين وثلاثـة عـنْ سـلامتهم، قـال كبيرهـم للابـن: «بهـذه الاسـتمارة يمكنـك دفـع الغرامـة فِيْ المحكمـة، أو عـبر الهاتـف، لا أنصحـك بذلـك. عنـد قاع الصفحـة تجـد ثلاثـة خيـارات بينهـا طلـب إجـراء محاكمـة، اختـر ذلـك، فنحـن لـن نحـضر جلسـة المحكمـة لأننـا لمْ نـر شـيئاً، وفِيْ هـذه الحالـة سـيتم رفـض الدعـوة ضدكـم، هـذا بخـلاف عـدم وجـود ضرر بـين عـلى ممتلـكات الدولـة، والآن تسـتطيعوا المغـادرة، رافقتكـم السـلامة»، وودعوهـم بـذات الابتسـام الرائـق. لا يـدري لمْ تذكـر فجـأة حـين كان يقـود سـيارته باتجـاه مدينـة الخرطـوم عابـراً كوبـري النيـل الأزرق مِـنْ مدينـة الخرطـوم بحـري، اسـتدعى رجـل شرطـة الحركـة الـذي التقـاه عنـد تقاطـع شـارع الجامعـة وهـو يمثـل حملـة شرطيـة للسـائقين المخالفـين لقواعـد المـرور، أخـرج للشرطـة بطاقتـين لرخصـة القيـادة

إحداهـما عالميـة سـارية المفعـول، والثانيـة سـوانية منتهيـة الصلاحيـة. رفـض الشرطـي قبـول رخصـة القيـادة العالميـة رغـم سريـان صلاحيتهـا، وسـأله: «رخصتـك الأجنبيـة دي مـا بتقسـم معانـا .. السـودانية بـح .. منتهيـة الصلاحيـة .. وده بخالـف المـادة 22 مِـنْ قانـون المـرور .. يعنـي مفـروض تدفـع لينـا 30 جنيـه ..» .. حـاول أنْ يفهمـه بأنـه قـد عـاد بالأمـس مِـنْ الخـارج وأنـه يقـود سـيارته وفقـاً لقانـون عالمـي يسـمح لـه بالقيـادة لمـدة سـتة أشـهر فِيْ أي مـكان فِيْ العـالم .. لكـن الشرطـي أصر عـلى أنْ يدفـع قيمـة القسـيمة 30 جنيـه فِيْ التـو واللحظـة .. لمْ يكـن يحمـل معـه نقـوداً كافيـة .. لـذا حـاول أنْ يخـبره بأنـه سـيذهب بالقسـيمة غـداً – إنْ شـاء اللـه – إلى المحكمـة ليدفـع قيمتهـا كاملـة، رفـض الرجـل وقـال لـه: «يـا راجـل محكمـة شـنو الدايـر تمشـيها بكـرة.. أحكـم عـلى نفسـك بـأي حاجـة خلينـا نلحـق سـمك الفطـور .. اللـه يدنـا ويديـك نحـن ورانـا خشـوم منتظـرة العضـة» .. لمْ يوافـق عـلى مـا أراده الرجـل، أدار أزرار محمولـه .. وكلـم ابـن أخيـه طالبـاً منـه أنْ يأتيـه بثلاثـين جنيـه عنـد تقاطـع الجامعـة ونفـق ضاحيـة بـري .. سـمعه الشرطـي فانقلبـت سـحنته وكـشر عـنْ أنيابـه .. وأمـره بالوقوف جانبـاً .. وتمتـم قائـلاً: «.. عـلي الطـلاق الراجـل ده مجنـون .. يـا ربي أنـا صبحتـه بي وش مِنـو مِـنْ الصبـاح .. غايتـو جنـس غايتـو» .. تسـاءل فِيْ داخلـه: «تـرى متـى أصابنـا جفـاء الخلـق، وقبـح النفـوس، وغلظـة اللسـان؟ ومتـى أصـاب الكفـرة حلـو الابتسـام وحـلاوة اللسـان وطيبـة القلـب؟ .. اللهـم اصفـح عنـا صفحـاً جميـلاً».

الولايات المتحدة الأمريكية – ولاية ميريلاند (يوليو 2017م)

(11)

سَأبِيْعُكُمْ عُذْرِيَتِيْ!

اقتباس: « لو أنكم تفكرون ساعة واحدة مِنْ اليوم فِيْ الفقراء بدلاً عنْ التفكير فِيْ غرائزكُم الجنسية لقضيتم على الفقر فِيْ بُلدانكم»

كاترينا مكليوريني

أنا فتاة مِنْ بلاد العرب، ككل النساء العربيات مِنْ المحيط إلى الخليج، أو مِنْ مراكش للبحرين إنْ شئتم، لا يهم اسمي أو لأي بلدٍ انتمي؛ ولا أرى بأساً أنْ تنادونني بليلى العامرية أو جميلة بوحريب أو مهيرة بت عبود؛ اختر الاسم الذي تريد. أعلنْ بكامل حالتي المعتبرة شرعاً عن عرض عذريتي فِيْ مزاد علني عام ومفتوح على صفحات الشبكة الإليكترونية ولمدة أسبوع واحد فقط لاغير، وسيرسي المزاد على صاحب أكبر عرض بالعملات الأجنبية؛ عفواً! لا نقبل العملات العربية فبعضها بلا فائدة وبعضها أسير. أريدكم أنْ تعلموا بأني لست أقل مِنْ كاترينا مكليوريني الحسناء البرازيلية العشرينية التي أعلنت فِيْ وقتٍ سابق عنْ مزاد تبيع فِيْه عذريتها لأجل فقراء بلادها، سأفعل مثل ما فعلت. أنا أصغر عمراً مِنْها إذ لمْ أبلغ التاسعة عشر بعد، وجمالي لا يقارن بجمالها، فمثلي مائة

للعين، آخذة للقلب، أنيقة الجمال، عظيمة الأكفال، واسعة الصدر، لينة الجسد، رقيقة الأنامل، سبوطة العصب، ساقاي جدلاوتان، وعيناي نجلاوتان، صغيرة الفاه، حسنة الثغر، معتدلة القوام، رخيمة الكلام، عذبة الماء، طويلة الشعر. هذه أنا وهذه صفات الأنثى التي أحملها، والدفع قبل البيع. سأقرأ كل المشاركات، وسأقوم بالرد على التعليقات مهما كانت قاسية. آهٍ .. لقد نسيت شيئاً .. ولأننا فِيْ معية فقه الضرورة، فأنا لا أقبل أنْ يمسني ذكر عربي فِيْ الحرام لذا سأضيف شرطاً أنْ يكون دخول الفائز بي لفض بكارتي دخولاً شرعياً، لا يهمني أنْ يكون متعة، أو مسياراً، أو حتى نكاح جهاد، ما يهمني أنْ يكون شرعياً، وليوم واحدٍ فقط.

نعم سيدي القوي الأمين – كما تدعو نفسك – سيرسى المزاد على صاحب أكبر عرض مقدم بالعملة الأجنبية، الدولار مفضل على العملات الأخرى، لا تبتئس كونك قد قاربت الثمانين مِنْ عمرك، هذا لا يهمني ما يهمني هو كم تدفع فلا تكثر الكلام، وإنْ كنت أعجب لذكرٍ قد سلخ الثمانين أو نحوها لا زال يعمل، ويدعو نفسه القوي الأمين. لا تهتم لما أهرف به .. قدم عرضك لتعرف موقعك بين المزايدين.

وأنت أيها العربي الشاب يا مَنْ تدعو نفسك أسير الغرام، قلت لكم سابقاً لا تهمني جنسية الهاتك؛ ما يهمني هو بكم يزايد عليَّ. خليجي كنت أم مراكشي، مصري أو عماني، مِنْ الهلال الخصيب، أو اليمن السعيد، مِنْ بلاد المليون شهيد أو بلاد المليون شاعر، هذا لا يهمني .. ولا يهمني إنْ كنت مفتول العضلات أو ضامرها أو فِيْ مثل عمري أو فِيْ مثل عمر القبور .. هذا المبلغ الذي

ستدفعه سيذهب لأطفال دارفور ودرعة والرقة وصنعاء وبنغازي والقدس وغيرها مِنْ بلاد العُرب البائسة، وستستمتع أنت - أو غيرك - بفض بكارة أنثًى عربية كاملة الدسم فِيْ العلن، وستشبع ذكورتك فِيْ أحشائي، وتفرح وأنت تصب ماءك داخلي، وستتفاخر بذلك أمام أصدقائك، وربما سيكتب عنْ فحولتك - أو فحولة آخر غيرك - أدباء عظام، ليشرحوا صفاتك لأكثر مِنْ ثلاثمائة وخمسين مليوناً مِنْ العرب، وربما ستتلقفك - أو غيرك - الفضائيات العربية وبرامج الكلام والجدال العربي الذي لا ينتهي، وتشرح لهم بإسهاب - أو هكذا أحسب - كيف فتحت سور عكا وأنت تمضغ العِلكة، وكيف ساهمت مساهمة المجد فِيْ سد حاجة النازحين والفارين مِنْ رمضاء العروبة إلى نار العربية.

يا سيدتي فاطمة الزهراء - لست أدري إنْ كان هذا اسمك الحقيقي أم اسماً مستعار استخدمته لتدعي الفضل والشرف - أنا مسلمة مثلك .. ولكن الدين لا يعنيني هنا كونه ديناً .. رغم اشتراطي لفض بكارتي على أسس شرعية وإنْ بنكاح جهاد.. والذكورة لا تُعنى بالدِين إنما تُعنى بالأنثى وثقب أوزونها .. ومع ذلك دعيني أذكرك نحن نفاخر بأننا نحو مليار وستمائة مليون مسلم فِيْ هذا العالم، أي نحو ثلاثة وعشرين بالمائة مِنْ سكانه، ونفاخر بأننا ثاني ديانة مِنْ حيث الكم العددي، والدين الأسرع انتشاراً فِيْ هذه البسيطة .. لا بأس! .. حقائق جميلة! .. فقط وحين نمعن النظر فِي هذا العدد الهائل مِنْ المسلمين فِيْ العالم، ثم نمضي فِيْه منطق العقل العربي المسلم نكتشف بأنه رقم مضلل .. لا تستغربي هذا الحديث فمِنْ هذا العدد نحو أربعمائة مليوناً

يقلـون أو يزيـدون قليـلاً مِـنْ المسـلمين الشـعية وغـير السـنة وهـؤلاء كفـرة فِيْ نظـر أهـل السُـنة، وإن قمنـا بإبـدال المقاعـد، فالشـيعة يـرون أنْ الأكثريـة السُـنية عـلى باطـل وهـم أهـل كفـر، وإنْ سـبرنا أغـوار التفاصيـل لرأينـا أنَّ السـلفيين لا يـرون إسـلاماً فِيْ غيرهـم حتـى وإنْ إدعـوا أنهـم مِـنْ أهـل السـنة والجماعـة، نفـس الحـال ينطبـق عـلى الظاهريـة والزيديـة والأخـوان والأخـوات والجمهوريـين وهلمجـرا. ليس هـذا فحسـب ففـي أربعينيـات القـرن المـاضي وجـد العـرب المسـيحيون أنفسـهم يسـكنون محيطـاً عربيـاً مسـلماً لا يعـترف بهـم، فتنـادوا فِيـما بينهـم ليخرجـوا لنـا بمـا سُـمي بالقوميـة العربيـة سـاعتذاك، لتسـقط فِيْ أول امتحـان لهـا حـين تقـدم بلـد ليكسـب عضويـة نـادي العـرب الـذي يسـمى بالجامعـة العربيـة إذ قوبـل طلبـه بالرفـض ثـلاث مـرات متتاليـات .. أتدريـن مـا سـبب رفضـه .. أنَّ أهـل هـذا البلـد سـود البـشرة لا ينتمـون إلى العـرب أصحـاب البـشرة البيضـاء .. أي واللـه .. هـذا كان سـبب رفـض عضويـة ذلـك البلـد العـربي المسـلم فِيْ غالـب أهلـه ثلاثـاً. عزيـزتي فاطمـة .. دعـك مِـنْ الديـن فذكـور العـرب لا يفرقـون بـين سـدرة المنتهـى وثقـب الأوزون.

وصـل المـزاد فِيْ يومـه الثالـث إلى ثلاثـة ملايـين دولار أمريـكي، دفعها أحـد أثريـاء العـرب فِيْ مـكان مـا بـين المحيـط والخليـج لكنـي لـن أبـوح بموطنـه، لا زال هنـاك أربـع أيـام بلياليهـا متبقية.

عزيـزي المعتصـم بالله .. اسـمك جميـل ويعود إلى الدولة العباسـية.. ولكـن! قُـلْ لِي، هـل تعـرف مَـنْ هـو المعتصـم باللـه الـذي سُـميت عليـه أو سـميت نفسـك عليـه؟ .. هـل سـمعت عـنْ عموريـة؟.. إنْ كنـت تعـرف إجابـات هـذه الأسـئلة فلِـمَ تصفنـي بالمومـس؟ .. أنـا

لست كذلك .. حتى هذه اللحظة لمْ يمسسني أحد .. وأنا أبيعكم عذريتي.. إذن لست بغية .. لكنك ككل ذكور العرب لمْ تفهم رسالتي .. ربما بك عته أو عنة .. هذا ليس شأني .. أنا يا سيدي أنثًى عربية تتعرض كل يوم للتحرش والاغتصاب والإكراه .. أنا أنثى لا تحسن احتمال المحنة ولا الثبات للخطب .. فلا تنعتني بما ليس فِيْ .. إما أنْ تدخل المزاد أو تتركني وشأني ..

هذا هو اليوم الخامس .. وصل المزاد إلى عشرة ملايين مِنْ الدولارات الأمريكية .. لا بأس! .. هناك عدد مهول مِنْ التغريدات والمشاركات .. جميعها يشترك فِيْ وصفي بالجرأة وأغلبها يذكرني بسوء. سأرد على مَنْ أراه مهماً.

سيدي أمير الساحرات .. توقفت كثيراً عند اسمك هذا .. وسألت نفسي لِمْ سميت نفسك بأمير الساحرات؟ .. لِمَ ليس أمير السحرة مثلاً؟ .. فأنت ذكر فلِمَ لست أميراً للذكور؟ .. ربما ترى نفسك خاطفاً لقلوب العذارى .. كل شيء جائز فِيْ بلاد العرب .. بحسب مزايدتك فقد توقفت عنْد خمسة مليون دولار .. لِمَ أيها الأمير؟ .. ألا استحق أكثر يا صاحب السمو؟ .. قصيدتك التي أرسلتها ليس لها فِيْ التفعيل ولا فِيْ النمطي أو النثر .. هي مجرد كلمات زاوجتها.. لا لها فِيْ العمودية ولا فِيْ الحداثة .. غير أني أشكر لك اجتهادك .. لكن عليك الاجتهاد أكثر فِيْ المزايدة .. فقد وصل سعر عذريتي إلى أكثر مِنْ عشرة ملايين .. أعتذر لضحكتي التي لمْ تسمعها .. ولكني أشكر لك هذه الزيادة .. سموك لا يرغب أنْ يخسر أمام شيخ عربي .. لا بأس! .. عشرة ملايين وخمسمائة ألف دولار.

اليوم السابع والأخير .. انحصر التنافس بين سمو أمير الساحرات

والشيخ ساتر العذارى .. وصلت المزايدة إلى ما لمْ أتوقعه .. نحو تسعة عشر مليوناً وثمانمائة وخمسين ألف دولار أمريكي .. وسمو الأمير هو آخر مَنْ قدم عرضاً.

الشيخ ساتر العذارى، ما بك؟ هل فُت عضدك؟ .. أراك قد استكنت وأنت ساتر العذارى .. لمْ يتبق الكثير مِنْ الزمن .. لقد استقبلت رسالتك التي أرسلتها لي فِيْ البريد الخاص .. لمْ تعجبني.. هذا مزاد علني مفتوح لا يجوز فِيْه استخدام الأسلوب العربي المعروف بالخيانة .. مزايدة فقط لا غير. إنْ كنت أريد الزواج لما احتجت أنْ أبيع عذريتي .. ومثلك لنْ يعرفني .. هل فكرت مثلاً لِمَ لمْ أنعتكم بالرجال مرة واحدة فِيْ حديثي هذا؟ .. دائماً أنتم ذكور فقط .. ذكور تشتهي الجسد .. قليل منكم يعرف معنى الرجولة .. النساء يمتن فِيْ دارفور وفِيْ درعة وفِيْ الرقة وفِيْ عدن والقدس وأنتم تدفعون الملايين لفض بكارة .. ألمْ أقل بأنكم ذكوراً فقط .. دعني أسألك سؤالاً أتعرف معنى قوله تعالي: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ أو قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ .. صدق الله العظيم.

ميريلاند – الولايات المتحدة الأمريكية (يوليو 2017م)

(12)

كَدَايِسْنَا[1] وكِلابُ الحِلَةِ

لَمْ تتمكن حدود الدنيا كُلها ولَمْ تستطع سدودها ولَمْ تقدر موانعها على كبح حبه العميق «لكلاب» الحِلة والوفاء المعروف عنْها ولَمْ يشفع للآخرين عنده مهاجمتهم لقتلها وتشريدها «لكدايسنا»، مثل ما لَمْ يشفع لهذه «الكدايس» أنَّ وجودها فِيْ هذه الحِلة بحدودها الجغرافية المعروفة كان إجبارياً وليس اختياراً. «كدايس» هذه الحِلة لَمْ تخيَّر أنْ تكون ضمن هذه الحدود أو غيرها، ولكنها إرادة الله الذي لا تُرد إرادته، لَمْ يكن يعجب مِنْ أسباب هذا الجفاء المطلق بين «الكلاب» المأمولة و«الكدايس» المقهورة. كان صاحبي مِنْ سدنة وفاء الكلاب، يعشق مشيتها على الأرض فِيْ نظامها البديع ونقر أرجلها المنتظم على يابسها. كان يراها فِيْ زيها الأخضر الجميل غاية فِيْ الجمال والانضباط. وكان يعتقد أنَّهم أهل لإرساء النظام والدفاع عنْ «الحِلة» مِنْ الغرباء المقتحمين مِنْ «الحَلْلال» المجاورة أو البعيدة التي تُجيش كلابها ضد كلابنا وكدايسنا على السواء، وتستخدم أنياباً ومخالباً كاسرة لا قِبل لحِلتنا بها فتستبيحها وتنهش جسدها حتى وإنْ سمت أبصارنا إلى أعلى السماوات فِيْ ظلمة الليل البهيم الحالك. وما كان يؤمن بتنوع «كدايس» الحِلة على اختلاف مشاربهم ومنازعهم.

(1) كدايسنا: جمع كديس أو كديسة ووهو اسم يطلق على القطة فِيْ العامية السودانية.

كان صاحبي مشتطاً فِيْ أحلامه وهو يحدثني عنْ أهمية «كِلابنا» .. وكيف أنَّهم - بانتمائهم الحتمي لِحلتنا - يعتبرون مِنْ أفضل جنود الأرض شجاعة وقدرة على القتال وحفظ الأمن .. وأنَّ تاريخهم فِيْ المعارك القديمة سيمكنهم مِنْ دحر فيالق الأعداء وشياطينها جميعاً وإنْ تكاثروا وتكاثروا علينا وأنَّ الحِلة فِيْ مأمنٍ مِنْ كثيرٍ مِنْ الأخطار المحدقة بنا. سألت صاحبي:

_ ما هي الأخطار المحدقة بِنا؟

قال باستعلاء:

_ ألا ترى هذه الأخطار المحدقة بالحِلة مِنْ كل جانب .. ألا ترى أنَّ الجميع يريد أنْ ينهش جسدها .. ألا .. ألا .. ترى أنهم يطمعون فِيْها وفِيْ ثرواتها .. ألا ترى أَنَّ مشروعنا الكبير مهدد بالفناء .. ألا ترى كل ذلك؟

سألته بتحدٍ:

_ لمْ تجبني .. ما هي الأخطار التي تحدق بنا؟ .. أريد أمراً محدداً ..

مرة أخرى قال:

_ إنَّهم يريدون بنا سوءاً .. يريدون كنس كل شيءٍ ننتمي إليه.. دينا .. حِلتنا .. «كلابنا» .. وحتى «كدايسنا» ..

صمت قليلاً وهو ينظر إلي باستعلاء وقال:

_ ألا تلحظ تمرد «كدايسنا» فِيْ الحوش الغربي .. وتلك التي جنوب الحِلة ..

قاطعته سائلاً:

_ ألمْ تلحظ أنت يا صاحبي أنَّ «كِلابنا» لمْ تقاتل مُنذ ستين عاماً إلا «كدايسنا» ذات الأصول السوداء؟ .. أو «كدايسنا الزرقاء» إنْ شئت .. ألمْ تلحظ أيضاً أنَّها بزيها الأخضر وياقاتها الحمراء قد نالت مِنْ «كدايس» الحِلة دون أنْ تمنع إنتهاكات «كلاب» الخارج على قِلتها؟ .. ألم تلحظ أنَّها قد مكنت بعض الضباع مِنْ نهش أجساد «كدايسنا» فِيْ الحوش الغربي مِنْ الحلة وغضت الطرف عنوة عنْ أفعالها؟ .. ألمْ تلحظ كل هذا يا صاحبي؟

أجابني متلعثماً:

_ إنَّها تقاوم تمرد «كدايسنا» فِيْ غرب الحِلة وجنوبها .. هذه «الكدايس» مأجورة لمصلحة آخرين لا يهمهم الحِلة ولا ساكنيها .. يدفع لها بالطعام كي تفعل مثل ما فعلت .. لتتمرد على ولاة أمر هذه الحِلة العظيمة ..

ارتسمت على وجهي ابتسامة ساخرة، وقلت:

_ أمية كاملة الدسم .. فلا قراءة للماضي .. ووهن فِيْ الفراسة العامة .. فلا حاضر يعاش .. وضعف فِيْ التقدير .. فلا مستقبل مرجو .. تعددت الأسباب والقتل واحد .. نفس الأخطاء القديمة .. ذات التعالي والعنجهية .. والمحصلة واحدة .. تجزأ الحِلة إلى أحواشٍ

وفِرقـانٍ صغـيرة .. ومـا لنـا إلا أنْ نقـول مـا يـرضي اللـه .. ولا حـول ولا قـوة إلا باللـه ..

ميريلاند - الولايات المتحدة الأمريكية (أكتوبر 2014م)

(13)

أعَرِسْ وَزِيْر وأوَادْع الفَقِيْر.. يا الله حَضِرْنِي

عـبر حسـين بـاشري شـارع النيـل إلى الشـاطئ يريـد أنْ يسـتجير برائحـة الجـروف، نظـر إلى صفحـة الميـاه الجاريـة وقـد ارتفـع الضحـى، ثـم وقـف قليـلاً تحـت شـجرة ظليلـة وفـرد خطاباً كان قـد لفـه بعناية، جـرت دمعـة سـخينة عـلى خـده، مسـحها بطـرف جلبابـه، وتمتـم قائـلاً: «بعـد عشريـن عـامٍ مِـنْ العمـلِ فِيْ الحكومـة تكـون مكافـأتي بضـع كلـمات عـلى ورقـة بيضـاء تنهـي ارتباطـي بالعمـل فِيْ دواوينهـا .. فجأة! وبـلا مقدمـات .. إنتهـى كل شيء ومـات كل حُلم» .. وقع فِيْ نفسـه شيءٌ مِـنْ الغيـظ ثـم شيءٌ مِـنْ الغضـب، ثـم شيءٌ مِـنْ الحـزن، ثـم التمـس الهـدوء فلـمْ يجـده وانتظـر مقدمـه فلـمْ يـأت أبـداً. حـاول أنْ يتسـلى عـنْ أخـلاط الغيـظ والغضـب والحـزن بالنظـر إلى تلـك الجزيـرة العائمـة فلـمْ يجـد إلى ذلـك سـبيلاً وقـد حجبتهـا عـنْ ناظريـة مركـب ضخـم سـيئ المنظـر. نظـر مـرة أخـرى إلى الورقـة التـي يمسـكها بيـده فـأدرك أنَّ بينـه وبينهـا شر مسـتطير وشـقاء عظيـم وضر مُلـح. لمْ يحتمـل منظـر المـاء أو الجزيـرة أو حتـى المركـب القبيـح، ولمْ تستنشـق رئتـاه رائحـة الجـروف، ولمْ يسـعد بظـل الشـجرة الضخمـة فأخـذ طريقـه إلى بيتـه فِيْ الحـي الشـعبي البعيـد، صعـد إلى الحافلـة دون وعـي وجلـس عـلى ركنهـا القـصي وأخـلاط الغيـظ والغضـب والحـزن تسـابق الريـح إلى الـدار القصيـة وأهلهـا.

التقى زوجته عائشة عند حوش البيت الصغير، ومنذ أنْ وقعت عيناها على عينيه رأتهما قد ضجتا بتسكع الغيظ والغضب والحزن. يكاد ضجيجهم المرتفع أنْ يطفأ وهج العينين اللتين عشقتهما منذ الصبا. امتلأت نفسها اضطراباً وأمتلأ قلبها ضيقاً، وانتقلت إليها بعض أخلاط الغيظ والغضب والحزن ففاضت عيناها بدمعاتٍ ساخناتٍ كعادتها حين تحس بضعفه وقلة حيلته. لكن إحساسها بضرورة الجَلَدِ فِيْ مثل هذه المواقف اضطرها إلى بعض القصد فأمسكتهما فِيْ بعض اعتدال. وحين أسر إليها بأمره رضيت بما قُسم لهما كل الرضا، وتسكعت عيناها فِيْ بحرعينيه فامتلأتا بألوانٍ مِنْ الغبطة والسرور والعطف والحب.

مرت سنة كاملة على حسين باشري وهو بلا عمل .. حتى حقوقه المالية على الدولة لمْ يستلمها، وظل يراوح بين هذا المكتب وذاك .. وهذا الموظف وذاك دون جدوى، لكنه كان يدرك أنَّ الله لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملاً، فلمْ يبتئس بأكثر مما فعل حين استلم خطاب فصله عنْ الخدمة للصالح العام .. وكان حين يذكر ذلك يستغفر الله ويحمده على السواء، كان يعلم أنَّ الأمر كله بيد الله وأنّه سبحانه وتعالى «ما شق حنكاً ضيعه» .. لذا توكل على الحي الذي لا يموت وسعى إلى العمل سعي المُجد.

أشرقت الشمس بنور ربها ذات صباح .. وإذا بصديقٍ قديم يظهر فجأة ويطرق الباب، وإذا هو حفي به مشوق إليه، قال مرحباً:

_ وينك يا إدريس؟ .. سنين ما شفتك .. وين الحي بيك؟

رد إدريس التحية بأحسن مِنْها وقال:

_ مرحب يا حسين .. كيفك وكيف أولادك؟ .. إن شاء الله كلكم طيبين ..

رسم حسين ابتسامة مفعمة بالود والترحيب وقال:

_ الحمد لله كلنا طيبين .. إنت وين يأخي؟ .. سنين ما شفتك.. مِنْ خليتنا فِيْ الوزارة تاني ما شفناك .. وين هسه؟

أجابه بعد أنْ أكمل ضحكته:

_ كويس إنك فتحت الموضوع ده .. بالمناسبة أنا زرتك فِيْ الوزارة وعرفته إنه شالوك للصالح العام .. على أي حال ده ما موضوعنا .. أنا طبعاً والحمد لله الآن مغترب فِيْ الخليج وحالتي باسطة والحمد لله .. لكن أنا جاي عشانك إنت ..

قاطعه فرحاً:

_ جايبي لي عقد معاك مِنْ الخليج ولا شنو ..

أجابه بابتسامةٍ رائعة:

_ لا والله يا حسين .. لكن الجايبني ليك أفضل مِنْ العقد فِيْ الخليج .. فِيْ واحد بهمني أمره .. وما بفضلوا عليك .. وشغال فِيْ موقع حساس جداً .. بصراحة وزير عديل .. بس هسة ما تسألني وزير شنو .. المهم الزول ده محتاج ليه لي زول أمين أولاً وشاطر ثانياً .. يمسك ليه كل أعماله الخاصة .. وهو بصراحة لا بقدر يديره وهو وزير .. ولا عنده أولاد .. عنده بنتين صغار أكبر واحده

فِيْهم فِيْ الثانوي .. يعني لسه قدامه كثير .. والراجل مليان شديد وما عايز يوري أخوانه إنه عندو قروش وهو أبو بنات وكده .. وح يدي البشتغل معاهو نسبة كبيرة مِنْ الأرباح ما بحلم بيها عاقل وحيكتب الشغل ده والرخص وكله بإسم الشريك الجديد.. وأنا والله لو ما مرتبط بعقد وأولادي مرتبطين بالمدارس هناك كان رجعته .. إنت طبعاً راجل دربتنا وكنت رئيسنا فِيْ الشغل وشطارتك دي ما بتناطحن فِيْها غنمايتين .. أما أمانتك الغنمايتين براهن ما كفاية .. فإنت زولي وهو زولي .. وعايز أجمعكم سوى قبل السفر.. نقول مبروك ..

نفضت الشراكة الجديدة غبار الفقر وانجلت عتمة الحاجة عنْ دار حسين باشري، لكن شيئاً ما كان ينقص مِنْ سعادته بهذه النعمة، وكان يستحي أنْ تبطره النعمة وكان يستحي أنْ يسيئ إليها، لكنه كان يريد أنْ يتخفف مِنْ المسئوليات التي تنوء بحملها الجبال الراوسي. كان يختلف إلى الشركة باسماً راضياً، يشارك أهلها الحب بالحب، ويوسع لهم فِيْ الرزق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لكن! .. شيئاً ما كان يحول بينه وبين كمال السعادة. كان الوزير الكبير يأتي إلى زيارتهم فِيْ زياراتٍ خاطفة لكنها متباعدة .. وكان سعيداً غاية السعادة بشراكة حسين باشري .. وقدرته الفائقة على إدارة أعمال الشركة حتى أصبحت عملاقاً اقتصادياً فِيْ وقتٍ وجيز مقارنة بما سبقها مِنْ فترات وما هو على شاكلتها مِنْ شركات.

ومضت الأيام بحسين باشري متصاعدة مزهوة بنفسها إلى أنْ التحقت ياسمين فِيْ وظيفة موظفة استقبال بالشركة. منذئذ تغير حال الشركة رأساً على عقب. كانت ياسمين صبية ناهد كحلاء

غيـداء غايـة فِيْ الجـمال، تلهـب العيـون بسـحر عينيهـا وملاحتهـا. زادت زيـارات الوزيـر إلى الشركـة، وطلـب أنْ يجهـز لـه مكتبـاً جديـداً فِيْ أحـد أركان الشركـة القصيـة. ثـم طلـب أنْ تنقـل ياسـمين إلى وظيفـة سـكرتيرته الخاصـة، ولمْ تمـض أيـام قلائـل حتـى أسر الوزيـر إلى حسـين بـاشري برغبتـه فِيْ الـزواج مِـنْ ياسـمين وأنَّـه يرجـو أنْ يخطبهـا ويأمـل فِيْ مسـاعدته. سـأله حسـين قائـلاً:

_ عايـز مسـاعدتي فِيْ شـنو يـا سـعادتك؟ .. إنـت تمـشي مـع أهلـك تقابـل أبوهـا .. وتطلـب إيـده ..

ابتسم الوزير باستخفاف وقال:

_ يـا حسـين يأخـوي إنـت جنيـت ولا شـنو .. أنـا شُـغلي مـا أعلنتـه.. أجـي أعلـن عـنْ زواجـي مِـنْ بـت قـدر بتـي الكبـيرة ..

عجِب حسين لحديث الرجل وسأله مستفسراً:

_ طيـب إنـت عـاوز تعرسـه لي؟ .. مـا تسـيبك مِنْهـا .. العـرس ده مـش إشـهار؟ ..

أجابه ضجراً:

_ يأخـي إنـت راجـل تفهمـه وهـي طايـرة .. أنـا راجـل ربنا موسـعه عـلي .. وعايـز لي ولـد ذكـر يورثنـي ويعَصِّـم أخواتـه .. أنـا مـا ح أعمـل كل ده عشـان يورثـوني أخـواني .. ومـرتي مـا بتلـد إلا بنـات .. وكـمان كـبرت بعـد ده لا بنـت ولا ولـد .. عشـان كـده عايـز ياسـمين تجيـب لي الولـد .. ودايـر أعرسـه عُـرفي لغايـة مـا تجيـب لي الولـد بعـد داك لـكل

حـادثٍ حديـث ..

انتفض حسين باشري واقفاً وقال فِيْ غضبٍ واضحٍ:

_ إنـت بتقـول فِيْ شـنو .. حالتـك وزيـر ومسـئول عـنْ رعيـة .. عايـز تعـرس ليـك واحـدة عُـرفي كـمان .. يـا راجـل اسـتحي إنـت عنـدك بنـات ..

مـضى عـام تـزوج فِيْـه الوزيـر الكبـير مِـنْ ياسـمين عُرفيـاً .. كانـت سـنة جدبـاء قاسـية عـلى حسـين بـاشري سـاءت فِيْهـا علاقتـه بالوزيـر الكبـير، وبـدا لـه أنَّ الأمـر بينهـما قـد شـارف منتهـاه. علـم أنَّ مخدمـه قـد أغـدق عـلى الأسرة الفقـيرة الكثـير مِـنْ المـال حتـى يشـتري لحمهـا ويلعــق رحيــق زهرتهــا الجميلــة، واستســلمت الأسرة لأسر الحاجــة فباعـت نفسـها إليـه دون أوراقٍ رسـمية ولسـان حالهـا يصـدح «أعـرس وزيــر وأوادع الفقــير .. يــا اللــه حــضرني» .. أسرف عليهــم فِيْ العطــاء فغرقـوا ولمْ يـدروا أنَّهـم غرقـوا فِيْ الشـقاء حتـى أكتافهـم أو آذانهـم أو شـعر راسـهم إنْ شـاؤوا. ومـا هـي إلا أيـام وشـهور إنتظرهـا الوزيـر الكبـير عـلى أحـر مِـنْ الجمـر حتـى «شـال» بطـن ياسـمين وانتفـخ.. وانتظـر الرجـل حتـى دخلـت زهرتـه إلى المستشـفى لتضـع حملهـا الـذي لمْ تسـتطع أنْ تتعـرف عـلى نوعـه رغـم كل المحـاولات عاليـة التقنيـة .. لمْ يكـن فِيْ مقـدور الوزيـر الكبـير أنْ يكشـف عـنْ سره لـذا لمْ يحـضر إلى المستشـفى .. حـاول أنْ «يلـوك» الصـبر وهـو فِيْ مقـر عملـه ليعلـم مـا سـاقه اللـه لـه مِـنْ رزق الولـد .. اتصـل مـرات ومـرات بأبيهـا فِيْ المستشـفى سـائلاً عـنْ نـوع الجنـين .. كان سـؤالاً واحـداً يتكـرر دون زيـادة أو نقصـان «جابـت الولـد ولا لسـه» .. عانـت ياسـمين الأمريـن وهـي تضـع مولودهـا البكـر .. وضعتهـا أنثـى وليـس الذكـر كالأنثـى ..

نظـر حسـين بـاشري إلى ياسـمين فوجدهـا فِيْ حالـة يـرثى لهـا مِـنْ الضعـف وقلـة الحيلـة .. إختفـى ذلـك الوجـه الجميـل فجـأة بـلا مقدمـات .. ونظـر إلى الوليـدة الصغـيرة فـإذا هـي تبادلـه النظـرات كأنَّهـا ترجـوه، ونظـر إلى أم ياسـمين فـإذا هـي جامـدة الوجـه بـلا تعابـير تعلـن عـنْ وجـوده، ونظـر إلى أبيهـا فـإذا عينـاه تدمعـان بـلا سـكون، قـال:

_ حمـد اللـه عـلى السـلامة .. مـا لكـم يـا جماعـة .. إنْ شـاء اللـه خـير ..

ارتفع نحيب ياسمين وأجابته:

_ ألحقنـا يـا عمـي حسـين .. الـزول ده مـا عايـز يعـترف بي بنتـه .. دايرنـا نكتبـه بإسـم أي زول تـاني غـيره ..

بهت حسين لسماعه قولها وقال فِيْ ذهول:

_ إنتـي بتقـولي فِيْ شـنو .. ده كلام مـا بـيرضي ربنـا .. وأرجـع وأقـول الغلـط غلطكـم .. لكـن ده مـا وقـت العتـاب ولا وقـت الحسـاب .. باللـه عليكـم اللـه شـوفوا الـزول النِـي ده .. ده ختوهـوا فِيْ الـوزارة دي كيـف؟ .. تعـال معـاي يـا حـاج برهـان وأحـكي لي الحكايـة دي مِـنْ طـق طـق .. للسـلام عليكـم ..

خرجا معاً وحسين باشري ينظر إلى الطفلة الوليدة فِيْ أسًى بالغ.

جلـس حسـين بـاشري إلى الوزيـر الكبـير فِيْ وجـود صديقهـما وسـبب تعارفهـما إدريـس الطاهـر. كان الوزيـر الكبـير يهـرب مِـنْ نظراتهـما إلى

ماء النيل تارة كأنه يريد أنْ يغوص فِيْه، أو ينظر إلى السماء تارة أخرى كأنَّه يريد أنْ يرقى إليها. وكان إدريس ينظر إليه راثياً مرة وقاسياً مرات. ابتدر الحديث قائلاً:

_ يا جماعة أنا والله جاي مِنْ الخليج أصلح بينكم .. الدخل بينكم ده شيطان .. إنتو ما كنتو سمن على عسل ..

قاطعه الوزير الكبير قائلاً:

_ يا إدريس يأخوي .. حسين ده تدخل فِيْ حاجة ما بتعنيه .. الشغل حاجة .. والأمور الخاصة حاجة تانية .. وأنا والله ما بخاف إلا مِنْ الله الخلقني .. وما فِيْ ود مقنعة بيلوي ضراعي ده .. عايز يشتغل بس .. أشيلو فوق راسي .. عايز يدخل فِيْ أمري الخاص .. يفتح الله .. كل قرداً يطلع شجرته ..

ضحك حسين باشري حتى دمعت عيناه وقال فِيْ سخريةٍ ولكن فِيْ حزمٍ:

_ أسمع يا وزير العفن إنت .. إنت ما بتخاف مِنْ الله .. لكن بتخاف مِنْ الناس .. وأنا ود المقنعة الحيوريك إنه الله حق .. الشركة ده بإسمي أنا وكل الحسابات الفيها دي بإسمي أنا .. إنت مِنْ الناحية القانونية ما عندك فِيْها أي حاجة .. وحتى إدريس ده ما بقدر يحلف فِيْ أي محكمة إنه شافك أديتني قروش ولا شافك إتفقت معاي .. يعني إنت غيري أنا ما بتقدر تسوي حاجة .. صفر كبير على الشمال بس .. وأنا والله ما عايز آكلك قرش .. وكمان ما عايز أشتغل معاك لأنك زبالة .. لكن عندي معاك شرط واحد

بـس تمـشي تتـزوج ياسـمين دي رسـمي وتعمـل ليهـا زي مـا بعملـوا العرسـان لأزواجهـم وتعـز أهلهـا بعـد مـا مرمطـت وشـهم فِيْ الطـين وكـمان تعـترف ببنتـك الماعندهـا ذنـب دي .. وتمـر سـنة كاملـة عـلى الـكلام ده أديـك كل قروشـك عـلى دايـر المليـم .. قـرش ينطـح قـرش .. غـير كـده ألحـس كوعـك وأعـلى مـا فِيْ خيلـك أركبـوا .. وأوعـه تحـاول تعمـل راجـل بكـرة بتلقـى فضايحـك فِيْ الجرايـد ونسـابتك السـاندنك أصـلاً حيعرفـوا إنـت منـو يـا نـتن .. سـمعتني يـا وزيـر الغفلـة ولا أعيـد ليـك الـكلام ده تـاني ..

ثم تركهما وذهب دون أنْ يلتفت إليهما.

ميريلاند – الولايات المتحدة الأمريكية (مارس 2014م)

(14)

بِكَاءٌ قَاجِيْ

كان كل شيءٍ محـض صدفـة، جلسـت بجوارهـن وهُـن يتحلقـن مقتعـدات عـلى أرض «الصالـون» الجميـل ذي الألـوان الرائعـة و»الديكـور» الجميـل. النوافـذ مغطـاة بسـتائر حلـوة الشـكل متناسـقة الألـوان متباينـة الشـفافية، «والسـجاد» الفـارسي الأعجمـي الرسـم يـكاد ينطـق بفخامتـه كأنَّـه يؤكـد أنـه سـليل آل كـسرى، ووسـادات مكسـية بكسـوةٍ رائعـة ناعمـة وحشـوٍ لـين ومتناثـرة عـلى سـجاد الأرض بقصـدٍ بـين، والأثـاث الراقـي الـزوق يزيـن المـكان ويجسـد عنايـة فائقـة بُذلت عنـد اختيـاره، وبعـض المصاحـف ترقـد هادئـة عـلى مسـاند مذهبـة ومضـاءة ومفتوحـة الصفحـات حتـى تكتمـل الزينـة، وسـيدات كالحـور العِـين يقتعـدن بجوارهـا فِيْ بيـت العـزاء أو بيـت البـكاء إنْ شـئت. كان كل شيء يبـدو جميـلاً .. لكنهـا مـع ذلـك كانـت تـراوح بـين العجـب والدهشـة .. فهـذا القـدر المفـرط مِـنْ الجـمال والروعـة لا يتناسـب مـع مناسـبة العـزاء ولا مـا يجـب عليـه مِـنْ الحـزن.

تسـكعت عوضيـة خطـاب بـين حـواري دهشـتها وأزقـة عجبهـا، وقد جـاءت – مِـنْ ذلـك الحـي الشـعبي البعيـد الذي تحتـار فِيْ الوصـول إليه سـبل النقـل جميعـاً – لتعـزي صديقتهـا القديمـة خديجـة الجعفـري فِيْ وفـاة والدهـا صابـر الجعفـري. كانتـا صديقتـين فِيْ عـز الصبـا وملاحـة

الفتيات، لكن سبحان مغير الأحوال فقد تغير حال المغفور له بإذن الله بسرعة الصاروخ، وأصبح بين غمضة عينٍ وانتباهتها مِنْ أغنى أغنياء المدينة، فاضطره هذا التغير المفاجئ إلى الرحيل مِنْ ذلك الحي الشعبي البعيد، إلى رحاب الحي الشرقي الراقي، وتطلب ذلك أنْ تتغير حياة الأسرة جميعاً مِنْ النقيض إلى النقيض حتى أنَّ صديقتها خديجة أصبحت خلود الجعفري ليتناسب مع الحي الجديد. لكن هذا التغير لمْ يطرأ على صداقتهما واحتفظتا بدفء علاقتهما ببعضهما البعض رغم تغير الحال وصروف الأيام.

لمْ تحس عوضية خطاب بأي ودٍ يتسلل إليها وهي بين سيدات المجتمع المخملي فانزوت إلى ركن قصي تنظر إليهن كأنَّها تنظر إلى عوالم خيالية لمْ يخطر ببالها أنَّها قريبة مِنْها كل هذا القرب. وجعلت تتسمع حديث بنات هذه البقعة مِنْ الأرض. قالت إحداهن – بالقرب مِنْها – تكمل حديثاً بدأ قبل دخول عوضية:

_ .. ما رهيب لاكيين .. عليك الله يا هدى فستانك ده مِنْ وين؟ .. بلييززز .. كدي قولي لي .. لونه التركواز عامل ماتشنق شرط مع التوب! .. فري فري ايكسايتت .. اتس نوط لايك ماين.. تكوني جيبتيه مِنْ سنتر بوينت دبي .. جنك دبي .. آم ماي رايت؟

ابتسمت هدى حتى كادت ابتسامتها تغشى عنان السماء، واتكأت على «خديدة» صغيرة بيدها اليسرى وباليمنى أزاحت خصلة تدلت فِيْ حنانٍ عنْ خدها الأسيل، وأجابتها وهي تتحسس جمال فستانها:

_ والله يا نور ما مِنْ دبي .. ده مِنْ لندن .. جابو لي سامي..

إنـت عارفـاه .. زوقـو لا يُعـلى عليـه .. كان عنـده مؤتمـر طبـي .. هناك .. وطبعـاً مـا ممكـن يجـي وإيديـه فاضيـة .. لازم يجيـب لحبيبتـه هدوية هديـة .. ريييـلي أي واظ فـري ايكسـايتت! .. هِـي واظ مارفيـلاص .. أي لـوف هِـم سـو ماتـش .. هِـي إذ مـاي مـان!

قالت أخرى فِيْ ضيق:

_ ليسـن قاييـز .. ريييـلي إت قِفْـز يـو أ نيـو لـوك .. هـاو أفـر، إتْ لُوكـس تشـيب .. ممكـن تلقـي واحـد أجمـل إنْ باريـس .. فِيْ الشـانزليزية.. بـس ميـي بي ليتـل بـت إكبنسـف .. أي ثنـق يـو كان آفـورد دِت ..

زمـت هـدى شـفتيها واكتسى وجههـا بسـحابةٍ رقيقـة مِـنْ الغضـب والضيـق، همسـت إلى نـور قائلـة:

_ بلييييـز، نـور هـاف مـيرسي أون مـي .. حـرام تلمينـي مـع البتـش دي ..

داعبتها نور قائلة:

_ بيتش آن وتش ..

تمددت ابتسامة ساخرة على ثغر هدى وقالت هامسة لنور:

_ هـاااو ديـير شـيي؟ .. شـيي فييـد ميـي آب .. لكـن .. آي هـاف تـو بيـي فـري سـمارت .. آي آم نـوت قونـا قِـف هـار ذيـس أوبوروتيونيتـي؟.. لابسـه لي بنفسـجي أطعنـي حقنـة .. واااات أ بيربيـل!

ضحكت نور بصوتٍ عالٍ والتفتن لضحكتها كل سيدات الصالون المخملي، حتى عوضية شاركت بابتسامة شعبية المحيا بيضاء الضمير. قالت نور بصوتٍ خفيض لمْ تسمعه سوى هدى وعوضية لقربها منهما:

_ سيبك مِنْها .. خلينه فِيْ حالنا ..

لمْ تأبه هدى بما قالته نور لكنها قالت بصوتٍ قصدت أنْ يسمعه الجميع:

_ وآآآآت أ صافرنغ؟ .. كانط يو سي .. باط، ذا قووود ثنق إذ ماي ديت وز ماي دارلنغ سامي .. قونا هاف داينر توقزر .. اتس ماي بيرث دي آند لوفلي ديت ..

اتسعت ابتسامة نور، وقالت:

_ آآآم قيتينغ نيرفص .. آآآآم مآآآآد آآآت يو .. لكن إنتي بتستاهلي .. ما زولة عز مما قمتي .. استمتعي مع راجلك وهابي بيرث دي ماي فريند ..

قالت هدى وقد أحست بنفسها والجميع يهنأها بعيد ميلادها وحفلة العشاء الخاصة مع زوجها:

_ آآآم إنْ أ بيق مِس! .. آي ووونا أ نيو لوك .. حجزت لي توب تُحفة .. ح أستلمه بكره بعد رفع الفراش .. كلفني ألفين دولار .. وده كله عشان عيون سامي .. وعندي كمان معاهو فستان أووو ماي قوود .. ح أفاجئ بيه سمسم حبيبي ..

صمتت المرأتان وبدت أخريات بالهمس والحديث عنْ أشياء لا تعرف عنْها عوضية خطاب شيئاً، همست لنفسها: «أين أنا الآن؟ .. ماذا جاء بي إلى هنا؟ .. هل نحن فِيْ بيت عزاء أم أننا فِيْ سوق سعد قشرة؟» .. خنقت عوضية ضحكة كادت أنْ تنسل مِنْ بين شفتيها وقد استدركت أنَّ هؤلاء النسوة لا يمكن أنْ يعرفن أين يقع سوق سعد قشرة؟» .. انكمشت فِيْ ركنها القصي كأنَّها لا تريد لهن أنْ يرينها .. لكن ما هي إلا دقائق حتى دخلت خديجة الجعفري .. عفواً خلود الجعفري إلى «الصالون» وفِيْ معيتها خادمتين تحملان «صينية» ضخمة فِيْها مِنْ مطائب الطعام ما لمْ تره أعين أهل ذلك الحي الشعبي قط .. أطباق مِنْ الدجاج والأسماك والباشميل.. حتى «ملاحي النعيمية والتقلية» ليسوا كاللذين تعرفهما وتستطعمهما .. ثم نظرت إلى مائدة صغيرة أخرى فإذا بها بعض الزلابية والشعيرية والسكسكانية أيضاً .. فِيْ الحي الشرقي الراقي يقدمون هذه الأطباق جميعاً فِيْ صالونات العزاء وسرادقاته.. سألت عوضية نفسها «ماذا يأكل هؤلاء فِيْ أفراحهم؟».. لمْ تستطع مشاركتهن الطعام فقد شبعت دون أنْ تأكل.. تناولت النسوة غداءهن فِيْ نشوة .. وظللن يعلقن على كل لقمة يستطعمنها .. هذا الطبق صنعته الطباخة حواء .. وذاك الطعم مِنْ لدن فاطمة المعروفة بأنَّها مَنْ يطبخ لأهل الحي الشرقي .. وكثرت التكهنات إلى أنْ قطعت خديجة أو خلود الجعفري قول كل نائحة بقولها فِيْ زهوٍ فاضح:

_ لا حواء .. ولا فاطمة .. ديل خلاص تو هيل .. زيي كانط ميك إت آقين .. أووولد فاشون .. طباختنا الجديدة غزال بتقوم بحاجات ديليشيص آند فانتاستيك .. وكمان مودرن .. مع طقم

الخدامـات الشـايفنوا ده .. واااااو ..

قالـت عوضيـة لنفسـها عجبـة: «حتـى الخدامـات بقـوا بالطقـم؟! .. سـجمنا نحنـه المـا قرينـا!» .. لكـن إحداهـن قالـت:

_ اسـتوب إت خلـودي! .. آآر يـو كيدينـق آآس؟ .. إكسـكيوز مـي.. ممكـن تسـليفيني ليهـا الأسـبوع الجـاي خمسـتاشر أمـي .. قـوود بلـس ها ر

أحسـت عوضيـة بـأنَّ خديجـة قـد وجـدت ضالتهـا أخـيراً حـين سـمعتها تقـول لصاحبتهـا:

_ نووو .. مش ممكن .. وين هيل فرييزيز ..

اغتاظت المعزية وقالت لها:

_ أوو كي .. أوو كي .. آي قـوط ذا ماسـيتج .. آي أندرسـتاند .. نـوو بروبلـم..

دخلـت نائحـة جديـدة إلى داخـل الصالـون تبحـث عـنْ خديجـة أو خلـود إنْ شـئت، ومـا أنْ رأتهـا حتـى تلقفتهـا باكيـة وهـي تعـدد:

_ أوو مـاي قـوود خلـودي .. آآآآم قونـا مـس هِـم فـري ماتـش .. هِـي واظ نايـس .. قـوود بلـس هِـم .. البركـة فيكـم .. دام إت فورشـن.. مـا شـفته قبـل مـا يمـوت

ثـم اقتعـدت بجانـب خديجـة .. وتلفتـت فـرأت أطقـم الخادمـات يقدمـن الشـاي .. تناولـت كـوب الشـاي .. ارتشـفت مِنْـه رشـفة ..

أعجبتهـا نكهـة القرفـة ورائحـة المسـتكة، خـارت قواهـا، فقالـت لصاحبـة العـزاء:

_ لكـن مـا تقـولي لي يـا خلـود بكاكـم قاجـي .. مـا شـاء اللـه .. نمسـك الخشـب ..

لمْ تسـتطع عوضيـة احتـمال هـذا الوضـع .. نظـرت إلى المصاحـف المهجـورة بأسـف .. ثـم اسـتأذنت صاحبتهـا وغـادرت إلى حيـث تحـس بالراحـة والإلفـة.

ميريلاند – الولايات المتحدة الأمريكية (مايو 2014م)

(15)

الدَعْوةُ حَجةٌ .. والمَديحُ قَعْدَةٌ

«هـذه القصـة مسـتوحاة مِـنْ مقـال للأسـتاذ / الفاتـح جبرا «سـاخر سـبيل» تحـت عنـوان «حلو حـلا» والمـؤرخ 2009/12/12م»

تنـاول المنشـفة بـلا رغبـة حقيقيـة وهـو ينظـر إلى زوجتـه وهـي تتجمـل وتتـذوق وتضـع بعـض «الميكيـاج» هنـا وهنـاك، ثـم تتعطـر بأخـلاطٍ مِـنْ عطـور النسـاء، ثـم تنظـر فِيْ حـيرة إلى مجوهراتهـا وحُليهـا وترفـع مقلتيهـا الكحيلتـين إليـه كأنهـا تسـأله أيهـم يناسـبها فِيْ تلـك اللحظـة. تلاشـت مشـاعره غـير عامـدة وتقافـزت وتسـكعت بـين أخلاطهـا غـير آبهـة، تـكاد تخلـو مِنْهـا الحيـاة أو تـكاد الحيـاة تمـشي دونهـا. تناولـت بعـض أسـاورها الذهبيـة ولفتهـا عـلى معصمهـا اللـدن. كأنَّهـا أحسـت ببعـض الراحـة، تناولـت عِقْـداً رائـع الصنـع ولفتـه حـول عنقهـا الطويـل، عكسـته ثـم شـبكت طرفيـه ببعضهـما البعـض وعدلتـه مـرة أخـرى، بـدى رائعـاً وأضـاف إلى جمالهـا جـمال آخـر مِـنْ صنـع البـشر. لا يـزال يـراوح مكانـه منقـلاً بـصره بين زوجتـه الجميلة وسـاعته التـي تقهـره وتعلـن لـه فِيْ شـماتة أنَّ الوقـت قـد أزف، وأنَّـه لا منـاص مِـنْ فعـلٍ لا يرغـب فِيْـه ولا يقـدر عليـه. أنهـت تزينهـا ثـم نظـرت إلى المـرآة فرضيـت عـنْ نفسـها وعـنْ زينتهـا، أدارت جسـدها يمنـة ويـسرة فِيْ شيءٍ مِـنْ غـرورٍ وإعجـاب. ثـم التفـت ناحيتـه فألفتـه كـما تركتـه

يقف والمنشفة على كتفه، رسمت على ثغرها تلك الابتسامة التى يعشقها، ورمته بسهمٍ مِنْ طرفها وهي تشير إلى الساعة المعلقة على الحائط قبالته، وتقول:

_ إنت لسه واقف بتعاين .. الساعة داخلة على اتنين .. الكرامة بتفوتنا .. ناس حاج هشام وحاجة عبير كرامة حجتهم قاااااجة .. ما بتتفوت .. دي حجتهم السابعة .. وإنت عارف الحجة السابعة دي يعني شنو .. توعدنا يا رب .. نحن لي هسه ما طبقناها .. فرت وحيدة .. ما زادت .. تقول شيوعيين ..

لمْ يجبها ولمْ يغضب أو يدهش لكلماتها ولمْ يسألها عنْ سر الحجة السابعة ولا علاقة الحج لمرة واحدة بالشيوعية. بلْ جر أرجله جراً إلى «الحمام» ليغسل جسده وبعض هموم الصباح، وليستعد لكرامة الحاجين هشام وعبير «القاااااجة».

دلف الزوجان إلى منزل الحاجين فِيْ ذلك الحي الراقي مِنْ المدينة، واحتفظت الزوجة بهدوءها وابتسامتها ومضت فِيْ خيلاءٍ إلى حيث ينتظرنها صديقاتها فِيْ معية الحاجة عبير. ومضى الزوج إلى حيث الرجال يسمرون ويباركون وفِيْ معيته عادته السيئة فِيْ الملاحظة والمعاينة. كان أول ما لاحظه الزوج أنَّ أبواب الدار الراقية قد خلت مِنْ العبارات المعتادة فِيْ مثل هذه المناسبات الروحية، مِنْ نوع «حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً» و «يا داخل هذا الدار صل على النبي المختار» .. واستبدلت بثرياتٍ للزينة تضفي جمالاً دنيوياً لا عبقاً روحياً، وهي زينة على جمالها توحي بتشبث الحاج بالدنيا لا بزهده مِنْها. وكان الصيوان المغروس عنوة فِيْ حديقة الدار الواسعة يشابه خيمة عربية حديثة مزينة بأجمل اللوحات

التـي تمـازج بـين الآيـات القرآنيـة وبعـض المجسـمات للكعبـة المشرفـة وللحرمـين المـكي والمـدني يتوسـطها صـورة كاملـة الدسـم للحـاج هشـام بملابـس الإحـرام تؤكـد أنَّ هـذه الحجـة هـي الحجـة صاحبـة الرقـم الـسر سـبعة. تجـاوز الـزوج المعيـان الحديقـة الخيمـة إلى «صالـون الرجـال» الرئيـس فاسـتقبله الحـاج هشـام بابتسـامة وضـاءه، ونهـض الآخـرون فِيْ معيتـه يحيـوه «بجلاليبهـم البيضـاء المكويـة» و «عمـم التوتـال المطـرزة» و «الملافـح المزركشـة بألـوانٍ جميلـة» و «أحذيتهـم الجديـدة المتباينـة» احترامـاً لصاحـب الـدار. جلـس بينهـم بـلا رغبـة تسـتلبه الدهشـة ويـأسره العجـب. والنـاس حولـه يسـمرون مـرة ويسـتمعون إلى الحـاج هشـام وهـو يقـول:

_ العايـز يحـج لازم يأجـر ليـه طيـارة خاصـة .. يسـوق فِيْهـا النـاس البينفعـوا معـاه .. الحـج ده مـا عملـوه سـاكت .. ومـا قالـوا لمـن اسـتطاع إليـه سـبيلا ساكت كـده .. وبعديـن الحـج بتـاع قـدر ظروفـك ده مـا حـج .. مضيعـة وقـت سـاكت .. تمـشي تتلتـل سـاكت يعـصروك مـن هنـا .. وتقـع بي هنـا .. وتمـشي كـداري مِـنْ عرفـة لي مزدلفـة لي مِنـى .. لا .. لا .. لا .. تمـشي مجيـه .. تحـج حجـة سـمحة وتقبـل راجـع.. ولا مـا فِيْ داعـي تسـافر .. وتدعـي إنـك مـاشي تحـج ..

والنـاس حولـه لا يحتجـون فِيْ مواجهتـه لكنهـم يهمسـون فهـذا يقـول:

_ «شـوف مسـتجد النعمـة ده حـداشر نفـر كانـوا سـاكنين فِيْ فـرت أوويضـة .. وأبـوه كان كلاف بشـد العلـوق للبقـر الليلـة جـاي يقـول حجـة قـدر ظروفـك .. اللـه يرحـم أبـوه كان راجـل طيـب» ..

وآخر يرد عليه هامساً:

_ ديـل حراميـة .. السـنة كلهـا يسرقـوا البلـد .. وبعديـن يحجـوا فاكريـن الحجـة تجـب مـا قبلهـا .. اللـه يورينـه فيهـم يـوم ..

فجـأة! انتظمـت حركـة غريبـة فقـد دخـل نفـرٌ مِـنْ الخـدم يلبـس زيـاً موحـداً ويحمـل موائـداً مزينـة بمـا لـذ وطـاب مِـنْ الطعـام مِـنْ الأسـماك ولحـم الضـأن والدجـاج والملاحـات السـودانية والباشـميل وغيرهـا مِـنْ الأطبـاق .. وبعـد أنْ تنـاول المدعـوون غداءهـم وأتبعـوه بـشيءٍ مِـنْ الفاكهـة والمعجنـات والكريـم كارميـل والكريـم شـانتيه ولمْ ينـس الطباخـون أنْ يسـودنوه بـشيءٍ مِـنْ «مديـدة التمـر» خاصـة وأنَّ التمـر هـو تمـر المدينـة المنـورة أحـضره الحـاج هشـام وزوجتـه بعـد أنْ «شـوَّما» إليهـا. ورغـم كل هـذا لمْ يسـتطع الـزوج أن يمـلأ بطنـه، ولا أنْ يتـبرك بمـاء زمـزم المثلـج الموضـوع فِيْ بـرادٍ كبـير.

ومـا هـي إلا لحظـات قصـيرات حتـى دخلـت مجموعـة مِنْ الشـباب فِي زي موحـد أمسـك كل واحـدٍ مِنْهـم «بمايكرفـون» وجعلـوا يتمايلـون ويقدمـون وصلـة للمديـح النبـوي .. ومـا أنْ تغنـت أفواههـم حتـى فغـر الـزوج فـاه عـلى مصراعيـه والمدعـوون يتمايلـون والمجموعـة الشـابة تـردد:

_ «كده .. كده يا المدينة يالنورك يلالي ..»

والحاج هشام يتمايل ويصرخ:

_ أبشروا .. أبشروا .. حجة مقبولة إن شاء الله ..

هكذا يقولها لنفسه، ثم يتمايل مرة أخرى وهم يرددون:

_ «الحجيج وين قالوا لي سافر..»

فيميل معه الآخرون حيث يميل، ثم يردد الجميع مع المجموعة الشابة:

_ «حج البيت ده حلو حلا..»

لمْ يتمالك الزوج نفسه .. خرج مسرعاً كأنّه أصيب بالغثيان .. أوقف سيارة «أمجاد» يريد أنْ يصل إلى منزله بأسرع ما يستطيع.. التفت خلفه إلى الفيلا الفاخرة .. جرت دمعة سخينة هاربة مِنْ بين جفنيه .. لا يدري لهروبها سبباً .. وصل إلى داره .. أخرج المفتاح يريد فتح بابه ليدخل .. فِيْ هذه الأثناء تذكر أنه نسي زوجته ورفيقة دربه فِيْ بيت الكرامة القاااجي.

ميريلاند - الولايات المتحدة الأمريكية (ديسمبر 2014م)

(16)

مُوْلُ العَجَائِب

كان الوقت خريفاً والشمس تتدثر خلف غيمة داكنة فِيْ إغفاءةٍ خفيفةٍ أشبه بقيلولة قُضيت عنوة، حين أخذ عباس الريس طريقه إلى «ملك العماري» ليشتري لنفسه بعض «السعوط» ثم يتابع طريقه إلى مكان عمله فِيْ مول العجائب كما يسميه. كان مشغولاً بمشاكله اليومية، فعليه أنْ يبحث عنْ عملٍ إضافي أو أنْ يزيد مِنْ نشاطه اليومي حتى يستطيع أنْ يغطي نفقات دراسة أخته الصغري فِيْ إحدى الجامعات، وحاجة أهله للغموس والعلاج. تسكعت الهموم على محياه وبدا واضحاً أنَّه غارق فِيْها مِنْ شعر رأسه إلي أخمص قدميه، وقف أمام دكان «ملك العماري» منتظراً دوره، لاحظ حسين صاحب الدكان أنّ عباس الريس لا يبدو على ما يرام ابتسم له وناداه:

_ سلام يا ريس الشي شنو سلام الله بقيت ما بتديهو لي زول.. مالك شايل الدنيا فوق راسك ..

رسم عباس الريس ابتسامة فاترة ورد تحيته قائلاً:

_ أهلاً يا حسين .. نعمل شنو جارين فِيْ وسخ الدنيا دي .. ما عارفين أولنا مِنْ آخرنا .. عليك الله أدينا «سعوط» بخمسة جنيه..

يومنا طويل .. الله يسهله علينا وعليك ..

ضحك حسين ضحكة عاليه كعادته دائماً، وقال:

_ يأخي أدها النار .. الدنيا دي ما بتستاهل تشيل ليها هم .. أهلنا قالوا دنيا دبنقا دردیقي بشيش ..

استلم حسين الجنيهات الخمسة وناوله كيساً مِنْ أكياس السعوط، قلبه بين يديه دهشاً ثم سأله:

_ يأخوي كيسك ده عامل ريجيم .. ده هسه كيس خمسة جنيه .. أملا لينا الكيس وبطل حركات الدغمسة دي ..

تناول حسين كيس السعوط بعد أنْ قذف به الريس على الطاولة، وقال له فِيْ سخرية:

_ باين عليك ما متابع الغلاء الفي البلد دي .. الدولار دقة الأربعطاشر وإنت عايز تسف بخمسة جنيه اليوم كله .. نايمين ساكت .. ما جايبين خبر ..

رسم عباس الريس ابتسامة ساخرة وقال:

_ عليك الله يا حسين ما تشاغلنا .. الدولار ده غِلا ما غِلا الدخلوا فِيْ سفتي شنو .. تمباكك ده ما عطرون وروث حمير .. مالك ومال الدولار .. ولا حميرك دي بتبعر بالبنزين .. ولا قاعد تستورد العطرون مِنْ مزارع التبغ فِيْ فيرجينيا .. ولا كابويات تكساس بقوا يسفوا مِنْ عندك .. بالله ما تفكها فينا مِنْ الصباح .. برانا

مقريفين .. وقافلة معانا مما أصبحت ..

أطلق حسين ضحكته المجلجلة مرة أخري وأضاف قليلاً مِنْ التمباك إلى كيس زبونه وهو يقول:

_ ماشي يا حبيب .. زدناه ليك .. لكن سيبك مِنْ لماضة أولاد البندر دي وأعرف إنه ارتفاع أب صلعة الأخضر برفع معاه حتى الجار والمجرور الدرسوك ليهم في الإبتدائي زمان .. فهمته ولا أفهمك تاني .. يا ريس ..

تناول عباس الريس «كيس السعوط» .. وجهز «سفة مدنكلة» أسكنها لثته ما بين فكه الأسفل وباطن خده الأيمن. ثم أخذ طريقه إلى موقف الحافلات ليمتضي إحداها إلى مكان عمله فِيْ مول العجائب. جلس على الكرسي الأخير وأسند رأسه إلى نافذة الحافلة محاولاً أنْ يفهم العلاقة بين ارتفاع سعر الدولار فِيْ السوق و «كيس السعوط» الذي فِيْ جيبه.

تحركت الحافلة باسم الله مجراها ومرساها، ومع رتابة حركة سيرها نسى عباس الريس «كيس السعوط» .. وسيطر عليه «أب صلعة الأخضر» .. وتسائل هلْ يمكنه أنْ يستبدل مقابل خدماته به بدلاً مِنْ الجنيه «الممحوق» والمصاب بأنيميا التعويم، ولِمَ لا؟ فلا مقارنة بين ما يقدمه مِنْ خدمات و»كيس السعوط» .. كما أنَّ فِيْ زبائنه شيئا مِنْ زهو وغرور لذا فإن الأمر سيقع فِيْ نفوسهم موقعاً حسناً.

دلف إلى عمله بكافتيريا الياسمين فِيْ مول العجائب، وقد استقر فِيْ نفسه أنْ يستبدل الجِنيه الكحيان بأب صلعة العفيان، ولا بأس

مِـنْ تجويـد بعـض الخدمـات وأنْ «يديهـا كـوز» أو «يكـتر المحلبيـة شـوية» .. وأدرك منـذ الوهلـة الأولى أنـه بحاجـة إلى صيـدٍ سـمين.

مـرت سـاعتان وهـو يقلـب الأمـر يمنـة تـارة ويـسرة تـارة أخـرى، حتـى لمـح شـلة الأنـس تأخـذ طريقهـا إلى مسـتقرها بالركـن القـصي المعتـاد فِيْ الكافتيريـا .. فـأدرك أنَّ السـاعة قـد أزفـت واتجـه ناحيتهـا، وحياهـم جميعـاً:

_ أهلا بيكم .. طولتوا علينا .. ليكم فترة رافعين القزاز ..

أجابه أحدهم:

_ أهـلاً يـا فـرده .. بصراحـه الكهـارب كانـت ضاربـة .. بـس يـا قلـب كلـه تمـام الآن .. والأمـور باسـطة .. كل سـتة فِيْ حتـة وكلـه تلاتـه فِيْ الخلاطـة .. المهـم إنـت كيـف .. جاهـز ولا ضـارب طنـاش ..

رسم عباس الريس ابتسامة شقية وقال:

_ مـا دام الضحـاكات فِيْ ما فِيْ مشـكلة .. الحسـس كتـير .. والآيفونات أكـتر .. والفاخفخينـو بالأننـاس فيـه وبالفراولـة فِيْ .. بـس المـرة دي الشرتيـت أب صلعـة الأخـضر .. جنيـه الملاريـا ده مـا دايرنـه ..

عـدل أحدهـم مِـنْ عمامتـه وملفحتـه ثـم نفـض عـنْ «جلابيتـه» البيضـاء «المكويـة» بعـض رمـاد السـيجارة التـي وقـع عليهـا دون قصـد، بـدا كأنـه الزعيـم الـذي لا يجـاري، وقـال:

_ يـا ريـس نحـن أولاد قلبـه .. أب صلعـة الأخـضر ده حقنـا نحـن ما حـق الأمريـكان .. عملـوا عشـانه نحـن .. المهـم تريحنـه .. المـرة الفاتـت

الأننـاس كان خفيـف والفراولـة مايعـه .. والدوكـو مـا جـاب الـراس.. وآيفـون بتاعـك رمتـالي سـاكت وماسـورة كبـيرة كرهنـه القعـدة.. وكان مـا العُـشرة البينـه كان أدينـاه أب صفيحـة .. بـس بينـي وبينـك الحسـس كان دسـيس وشرط لـلأرض ..

أحـس عبـاس الريـس بـشيءٍ مِـنْ راحـة، وأنـه اقـترب كثـيراً مِـنْ مبتغـاه، فقـال:

_ مـا فِيْ مشـكلة .. الرصـة زابطـة إن شـاء اللـه .. وأنـا عارفكـم أنتـوا نـاس السـمينة .. نـاس معلمـين وشرارات .. وأنـت بالـذات يـا معلـم عنـدي ليـك آيفـون جديـد كـرت يجـدع ليـك الاسـتايل ويجضـم ليـك البجبجـة زي مـا دايـر .. .. كـدي هسـة طلباتكـم شـنو ..

أجابه:

_ الليلـة نحـن نـاس حسـس سـاكت دايريـن لينـه بُـن حبـشي مخصـوص .. وكـمان دايرينـك تـزود لينـا الأنانـس فِيْ الفاخفخينـة .. واتوصـه بالدوكـو ..

ضحك عباس الريس وقال:

_ بُـن حبـشي .. الليلـة مزاجـك شـديد يـا حبـة .. أهـه وعايـزه لانـد كـروزر ولا لكـزس .. والبُن الحبـشي ده جماعـي ولا ليـك بـراك يـا معلـم..

قال:

_ إنـت عـارف .. زاري فِيْ ركـوب اللكـزس .. وجنـي فِيْ الـبُن الحبـشي.. لكـن شـوف الشـباب عايـز شـنو ..

قال أحدهم:

_ يـا عبـاس يـا درفـة .. كل زول بمزاجـه .. بُـنْ حبـشي شـنو الفـي الـبرد ده .. ده كلـه مـن جـدو وجـدو اللـه يقـدو .. عايزيـن فـول حاجـات .. حنـان بلدنـا .. نعرفـه ويعرفنـه .. بـس يكـون شرط ونضيـف.. والكلنجـات موجـودة كان أب صلعـة ولا أب عقـال .. الجيـب مليـان والقلـب دفيـان يـا حبيـب .. بـس نحـن شـكِّل لينـه شـوية لاندكـروزرات.. وشـوية لكزاسـات .. وكان عنـدك دفـار قاطـع أنـا بركـب ..

ازدادت ابتسامة عباس الريس وقال:

_ زابـط .. ح أمـش أجيـب بقيـة الطلبـات .. وأول مـا أختهـا قدامكـم.. أف 16 بتمـر علينـا جنـب التربيـزة .. كلـه زول يجـر نـور ويحـدد طلبـه بالزبـط ..

علـت ابتسـامات مختلفـة المعـاني عـلى وجـوه الجالسـين فِيْ انتظـار مـرور الأف 16. بينـما امتـلأ عبـاس الريـس زهـواً وغـروراً بنفسـه وهـو يحـس أنَّ الأمـور تجـري بـأسرع مـما كان يتوقـع ومـا هـي إلا لحظـات إلا وسيسـتلم أول أب صلعـة ذلـك العـصي الأخـضر.

ومـرت الأيـام تلـو الأيـام وزادت الغلـة فِيْ يـد عبـاس الريـس، واشـتهرت تجارتـه وزادت أعـداد زبائنـه.

وذات مـرة زاره أحـد زبائنـه مِـنْ أصحـاب السـمينة تلـك فِيْ كافتيريـا الياسـمين بمـول العجائـب، كان وحيـداً عـلى غـير العـادة، لَمْ يكـن فِيْ حـضرة جوقتـه، تقـدم إليـه محييـاً:

_ سـلام يـا حبـه .. مالـك بـراك الليلـة .. الجماعـة شـتتوا بـدري ولا شـنو ..

لَمْ يجبه مباشرة، ولكنه تلفت حوله باستغراب وقال:

_ الكافتيريا الليلة لامة .. الحكاية شنو ..

أجابه:

_ الكافتيريـا براهـه .. المـول كلـه .. المطـره صابـة .. والليلـة مـا عندنـا ليـك لا بُـن حبـشي ولا أنانـاس ولا دوكـو .. الجميتـي مـالي المـول..

قال:

_ الليلـة أنـا مـا عايـز حاجـة منكـم .. عنـدي حقـي بـراي .. جكـسي شرط جـارة خيـط .. مِـنْ الصبـاح داقـي معاهـا الحنـك .. كل مـا أقـول ليهـا نمـشي الخنـدق .. تعمـل غمرانـة .. لكـن مـع مطركـم ده أخـير نركـب حديدتنـا ونكسـح يـا فـرده ..

سأله بفضول:

_ ممكن أشوف الجكس الجامد ده؟

نظر إليه باستفزاز وقال له:

_ إنـت مـا نصيـح .. دي حاجـات خاصـة .. هـو أنـا لـو كنـت عايـزك تشـوفه ولا يشـوفه غـيرك كان خليتـه فِيْ الحديـدة بـرة .. أقعـد فِيْ علبـك يـا عبـاس .. مـا عشـان هظرنـا معـاك .. معناهـا بقيـت صاحبنـا .. .. يـا زول الدوكـو ذاتـه مـا عايزينـه مـع الجميتـي المـالي المـول .. مـع السـلامة ..

تركـه وذهـب دون أنْ يلتفـت ناحيتـه، كان تصرفـه قاسـياً وكانـت كلماتـه مؤذيـة، ولكـن الفضـول غلبـه وتبعـه إلى خـارج المـول، كانـت الفتـاة تقـف بجانـب السـيارة وقـد اسـتبد بهـا القلـق، لمْ يتبـين ملامحهـا بـادئ الأمـر، اقـترب أكـثر، بـدأت ملامحهـا تتضـح، كان المعلـم قـد اقـترب مـن سـيارته، وملامـح الفتـاة تتضـح أكـثر فأكـثر، إنهـا أختـه الصغـرى، صرح بأعـلى صوتـه:

_ أحلاااااااااااااام ....

التفتـت الفتـاة إليـه، هـي أحـلام أختـه الصغـرى، .. أسرعـت أحـلام بالقفـز إلى داخـل السـيارة، وهـي تـصرخ:

_ سجمي .. عباس أخوي ..

التفـت المعلـم الزبـون إلى حيـث أشـارت، شـاهد عبـاس يجـري ناحيتهـما، أدرك كل شيء فِيْ لحظـات، قفـز إلى السـيارة، وانطلـق هاربـاً فِيْ معيـة أحـلام.

ميريلاند – الولايات المتحدة الأمريكية (أبريل 2014م).

(17)

يا ابْشَرَا .. إنْ شَاءْ اللّه رَاجِلْ مَرَةْ

«**الـزواج** مثـل النـاس فِيْـه سـيئ الحـظ وحسـنه، ولكـن! .. ليـس الحـظُ صدفـةً فِيْ كل الأحـوال ففِيْـه شيء مِـنْ فضـل التدبـير وبعـض مِـنْ حسـن التقديـر» .. هـذا كان مقصـد بـت المِنـا بنـت الفـكي وهـي تحـدث صديقتهـا فاطمـة بـت الحـاج جـلاب وهـما تسـمران «بشـمارٍ حـارٍ» يـدور بـين أزقـة المدينـة وفرقانهـا. كانتـا تتحدثـان عـنْ «خطـف» ناديـة بـت البنـدر للدكتـور حاتـم ود إبراهيـم العطـار رغـم أنـه متـزوج مِـنْ صديقتهـا المدرسـة سـعاد بـت حـاج الأمـين إمـام الجامـع. كانـت فاطمـة حزينـة جـداً فهـي تـرى أنَّ ناديـة بـت البنـدر قـد خانـت صداقتهـا وطعنـت سُـعاد فِيْ ظهرهـا وسرقـت مِنْهـا زوجهـا الـذي أحبتـه، وكانـت بـت المِنـا عـلى النقيـض تعتقـد أنَّ سُـعاد قـد فرطـت فِيْ زوجهـا بنفسـها وأنَّهـا لمْ تكـن تسـتحقه أصـلاً. قالـت فاطمـة بـت الحـاج جـلاب فِيْ صـوتٍ حزيـن صـادق:

_ يـا بـت المِنـا يأختـي .. ناديـة مـا ليهـا حـق تختـف الراجـل مِـنْ مرتـو وأولاده .. سـعاد عشـان بـت قبايـل لمتـو مِـنْ الشـارع .. ودخلتـه بيتـه .. عشـان مـا تـدردر فِيْ البلـد وتتعـب وتتـم قرايتـه .. تقـوم تجازيهـا بختـف راجلـه ..

أجابتها بت المِنا بغير ما ترغب فِيْ سماعه وهي تضغط على الكلمات ضغطاً يكسبها معانٍ أقرب إلى الشماتة مِنها إلى التضامن:

_ تستاهل .. رافعه نخرته فِيْ السماء كأنَّ الدنيا ما فِيْها زول غيره عرس ليه دكتور .. كف الحدية ختفتو ختف .. البخليها تدخل ليها مرة جوه بيته شنو .. بوبار ساكت .. بالله سيبينا مِنَّها.. قالت قراية .. أُم مال الداخليات الكتيرة الفي البلد دي عاملينه ليه ..

قاطعتها صاحبتها قائلة:

_ نان هي تعلم الغيب .. واحدة صاحبته مِنْ المدرسة الإبتدائية.. وعمرن ده كلو صلتن ما اتقطعت .. ولما كانن مع بعض فِيْ المدينة الفوق كانن جيران يوماتي نايمات مع بعض .. يوم عند دي والتاني عند التانية .. ما قايلاها بتخون العشرة .. وتختف راجلة بعد دخلته بيته ..

قالت بت المِنا:

_ تنوم عليها حيطة يا فاطمة يأختي .. برضو تستاهل .. فِيْ زولة عاقلة بتدخل ليها مرة بيتة عشان تدخل وتمرق قدام راجله.. سجم أمها كان كدي .. كان عرس ما يعرس .. هي زعلانة ماله .. ختت الزيت جنب النار .. وجاية تغني يا ظالم جفيتني .. سمح .. جيت لأمها ..

حدقت فاطمة بت الحاج جلاب فِيْ صاحبتها دهشة ومنكرة، لكن بت المِنا لمْ تمهلها لتستوعبها فأكملت قائلة:

_ طبعاً كلامي ده ما عاجبك .. هي ما صاحبتك عات .. والنصيحة ما بتمرقيها فِيْها .. لا إنتي ولا صاحبتك ما سمعتن بنات الزمن ده وهن يكوركن بأعلى صوتن يا أبشرا .. إنْ شاء الله راجل مرة ..

صمتت برهة ثم أردفت:

_ واحدة تخلي مرة غريبة تدخل بيته .. وتخلي راجله يأخد رأي الغريبة .. ويقعد معاها وتشاوره فِيْ أموره الخاصة .. وكمان تقول ليو ألبس الكرفته الزرقاء المخططة ماشة مع البدلة السادة.. ولا الشال والملفحة ديل أجمل مع الجلابية السكروتة .. ما مع الجلابية البيضاء .. وهي تسمع والكلام فايت أضانه بهناك.. ومستنية الراجل ما يتحرك .. والله ده إلا ما يكون راجل ..

لمْ تستطع فاطمة الرد على دفوعات بت المِنا القوية، كل الذي قالته قد حدث وقد سمعته مِنْ سعاد نفسها، لكنها لا زالت تحس بخيانة ما، قالت كأنَّها تستفسرها:

_ يعني شنو كلامك ده؟ ..

أجابتها:

_ كلامي واضح .. والواضح ما فاضح .. سعاد غلتانه .. راجلي ما بجيب ليهو مرة مِنْ الشارع وبعد كده أعمل نفسي شهيدة الواجب .. راجلي علاقتو مع النسوان إنتهت مما عرسني .. بس أمو وبنتو وأختو وعمتو وخالتو وحبوبتو كان عايشه وبنات أخواتو وأخوانو أما بنات عماتو وخالاتو يشمهن قدحة مما يدخلن علينا

أصرصـن ليهـن لمـن يمرقـن مرقـن بـلاء .. خـلي أخليـه مـع بنـات الحلـة وصاحبـاتي .. الرجـال ديـل عيونهـم زايغـة .. الواحـد مـما يشـوف ليـه طـرف تـوب إلا يتلفـت زي كديـس الاسـبتالية .. عشـان كـده الواحـدة تعمـل حسـابه وتكنكـش فِيْ راجلـه ومـا تفكـه .. تخنقـو عديـل وتختـو تحـت عينيهـا .. ومـا تقـول لي ده حـظ ولا مـا حـظ .. ده كلام فـارغ .. وقـع ليـك يـا فطومـة يأختـى .

لمْ تــرد عليهــا أحســت ببعــض الضيــق، تناولــت منديــلاً ورقيــاً ومسـحت دمعـةً سـالت عنـوةً، وهـي تحـاول ألا تضـير مكياجهـا، ثـم انســجبت مودعــةً.

ميريلاند – الولايات المتحدة الأمريكية (31 ديسمبر 2014)

(18)

إحْنَا أوْلَاد قَلِبَه

«لغـة الرانـدوك .. لغـة الشـارع وحـوش الجامعـة .. لغـة أولادنـا وبناتنـا»

أرسـلت الشـمس أشـعتها إلى الدنيـا لتزيـح سـتائر الليـل الحالكـة وتعلـن عـنْ صبـاحٍ جديـدٍ. فـرك عـادل الكلـس عينيـه وهـو يتمطـى عـلى «عنقريبـة» القابـع فِيْ طـرف الحـوش بعيـداً عـنْ «عناقريـب» نسـاء الحـوش. لا يـزال النُعـاس يداعـب أجفانـه، تثائـب بقـوة، ثـم أزاح «الفركـة البيضـاء» عـنْ جسـده، وجلـس عـلى مـرق «العنقريـب» وهـو يشـد «جلابيتـه» إلى الأسـفل ويبحـث عـنْ «شبشـبه» بقدميـه ليمتطيـه. تلفـت حولـه فلـمْ يجـد إلا الشـمس وهـي تتسـكع فِيْ شـوارع الدنيـا وأزقتهـا. نهـض متثاقـلاً يجـر قدميـه جـراً ليسـتاك ويـرش جسـده ببعـض المـاء البـارد ويبـدأ يومـاً جديـداً مِـنْ أيـام البشريـة. تحـت زخـات «الـدُش» ردد بعـض أغنيـات الشـباب بصـوتٍ فَيْـه شيء مِـنْ نشـاز.

ومـا هـي إلا لحظـات حتـى كان فِيْ كامـل هندامـه، فتنـاول هاتفـه المحمـول «الجلاكـسي» ودعـس عـلى بعـض أزراره، ثـم أدخـل سـماعة الهاتـف فِيْ أذنيـه وانتظـر يسـمع رنـين الهاتـف وهـو «يفلفـل» شـعر رأسـه بطريقـة يستحسـنها. أجابـه الطـرف الآخـر فقـال يحييـه:

_ وين يا قلب .. الرصة شنو .. الكتمة أمبارح ضاربة .. والقون بيض ..

صمت برهة ليسمع رد صاحبه ثم أجابه:

_ كلو تحت السيطرة .. طلوس كرت كرتونة وداقي بيهو سيستم .. وطقماسي شرط للأرض .. وبرضو كرت كرتونة يا عمك.. كلو عشان البُقاقة الجديدة .. المهم الزنق يكون كارب .. عشان القرد والنبق والغرزة والقزم يكون زابط مع الجاحة .. جبجبة للصباح ..

صمت مرة أخرى لبضع ثوانٍ ثم قال:

_ يأخي لا .. ده كباية ساكت .. الناموسة كرهتو وكرهت اليوم اللماها فيهو .. جلنطات بس .. بجم وعدم فهم .. فِيْ النهاية كبرت اللفة .. والله ساجوحة شطة ورجلة صاح .. لكن صاحبك حمام ساي .. تقول كان ضارب ليهو فيله .. عليك الله شخت ليهو .. ولا أتكل بيهو الباب ..

صمت برهة عدل فيها مِنْ هندامه ثم قال:

_ كلو ستيم يا حبة .. إنت ما تفتيحة وشايل مفاتيحة .. ود قلبه وود سنترا .. كلامك بالموبايل ولابس استايل .. لووول ..

ثم أطلق ضحكة عالية، واستدار خارجاً. سمع صوت أبيه يناديه ويسأله:

_ يا ولد يا عادل .. ماشي وين؟

أحس ببعض الضيق لكنه أجابه:

_ ماشي الجامعة .. ومِنْ هناك ماشي مع أصحابي عندنا مذاكرة..

سأله مرة أخرى:

_ هـسي الرطانـة دي معناهـا مذاكـرة .. ويـن كتبـك؟ .. مـاشي الجامعـة وأيديـك فاضيـة .. كـمان مـاشي بـدون قـروش ..

أجابه بلا مبالاة:

_ لا يـا حـاج .. كتبـي فِيْ العربيـة .. والقـروش شـلتها مِـنْ الحاجـة .. عـنْ إذنـك يـا حـاج عشـان إتأخرتـه عـلى المحـاضرات ..

اسـتدار وتحـرك بعيـداً عـن والـده. ركـب سـيارته وأدار قرصـاً مدمجـاً ليسـتمع إلى أغـاني شـبابية جديـدة. لمْ تمـض لحظـات حتـى سـمع رنـين هاتفـه، ابتسـم وهـو يـرى صـورة صديقـه وائـل سـكروته، دعـس عـلى الـزر الأخـضر وأجابـه:

_ وين يا فردة ..

صمت قليلاً ثم ضحك ضحكة عالية وقال بين ضحكتين:

_ إنـت لسـه مـع السـحلية الشـادة نمليـة .. عاجبـك فصـل الديـن عـنْ الدولـة ولا شـنو .. يأخـي كـبر دماغـك ونفـض ليهـا .. الحنـان زي الضبـان .. كتـير لامـن مسـيخ .. شـوف ليـك مـزة دمـار .. حربويتـك

دي نجرتـه وبتوديـك التـوج .. دي النـوع البعمـل ليـك بـرج الحمـل ..

صمت قليلاً، ثم أجابه:

_ مـا أتأخرتـه .. لكـن الجُلكـين وقفنـي أداني محـاضرة .. بـس كبيـت ليهـو مكنـة دقـداااق قرايـة وكـده .. غايتـو يحلنـا الحلـة بلـة .. بختـك إنـت .. جلاكينـك مغتربـين .. شـهاده عربيـة وقصـة منسـية .. ماشـة معـاك بالكوبـري الجديـد ..

سحب سيجارة ووضعها فِيْ فمه دون أنْ يشعلها ثم أردف:

_ الفلنـكات جاهـزه يـا عمـك .. مـا تشـيل هـم .. بـس عنـدي جولـة حـول الدولـة .. وبعديـن نتلاقـى فِيْ الركـن .. أسـمع .. أسـمع .. قبـل مـا تقفـل .. جيـب معـاك الإسـكتش وبعديـن نتحاسـب إنجليـز.. حـق أمبـارح أتفقـع مننـا .. اللـه يلعـن الضهـب .. كان كتـير .. عـلى فكـره .. حاتـم جنـي قـال جايـب معـاه زاموكتـين نـار منقـد .. وقـال القرمبـوزة فيهـن نجاضـة .. عـذاب بـس .. أنـا غايتـو جنـي ده عارفـو بتـاع جلكسـات .. عشـان كـده طـافي نـورو .. لكـن إنـت تعـال شـوف يمكـن تفـك السـحلية بتاعتـك دي عكـس الهـواء .. ياللـه يـا حبيـب .. غُطـى جالـون ..

أغلـق هاتفـه الجلاكـسي وانطلـق يتهـادى فِيْ شـوارع المدينـة دون قصـدٍ أو هـدف، يتلفـت حولـه كأنَّـه يبحـث عـنْ شيءٍ مـا لكنـه كان يريـد أنْ يقتـل الوقـت لا غـير. مـرت سـاعتان وهـو عـلى هـذه الحـال، نظـر إلى سـاعة هاتفـه المحمـول ثـم رسـم ابتسـامة عربيـدة، ودعـس عـلى أزرار الهاتـف ثـم اسـتدار باتجـاه الـشرق. توقـف قليـلاً بالقـرب

مِنْ مبنى جميل بالشارع العام، وماهي إلا لحظاتٍ حتى جلست بحانبة فتاة غاية الجمال، أدار سيارته بسرعة، وحين ابتعدا قليلاً قال لها:

_ وين يا قلب .. الكنتة شنو

أجابته بابتسامة رائعة وقالت:

_ كلو ستيم .. كل ستة فِيْ حتة .. وكل جركانة فِيْ مكانة ..

رفع حاجبيه دهشاً ثم قال مستفسراً:

_ أهه مالك متغابية فينا العِرفة .. سمعتي ولا جابوا ليك .. كنا متصلحين للطيش ..بس عملتي فيها وهمات وجدعات كده فِيْ شكل ورد .. وكترتي الباكنغ بودر .. خليتي الزول يطلع مِنْ علبو ... ويفوِّت طارة كلتش طوالي ..

عقدت حاجبيها وقد لبسها الغضب، واكتحلت عينيها بدموعٍ هائمات، ونظرت إليه نظرة فِيْها أخلاط مِنْ الحب والحنان والحزن، وقالت:

_ أسوي ليك شنو .. عامل فِيْها فراشة .. وإنت عارفني أنا ما بقبل أتختة فِيْ غار حراء .. كلما تشوف ليك دامة نيو دلهي تعمل ليها بليى هارت .. وطوالي ترمي البايظ .. والحنك سنين .. والجماعة نايمين .. أعمل غمرانة .. ومما يجي الدور علي تعمل فتريتا وتقول لي رمال حلتنا كبسوا .. باللة ده علي أنا .. قايلني بستلة وحايمة فِيْ الحلة ولا شنو ..

أحس بغضبها وحزنها فأراد أنْ يطيب خاطرها، فقال:

_ أنسى يا أونسة .. ما تبريني .. كفاية سلقتيني سلق بالطريقة الصاح المرة الفاتت .. هسي خلينه من الكلام الفارغ ده .. «الشلوت» ده مِنْ وين .. لايق عليك .. بياكل مِنِّك حتة ..

انفرجت أساريرها ورسمت ابتسامة وادعة ثم نظرت إلى حذائها بفخر، وقالت:

_ واحدة دلالية جارتنا جابتو مِنْ دبي .. شطحت لي فِيْ البداية.. ومسكت فوق .. قايلاني داقسة .. لكن وين أنا بت سوق .. ومقرمة فطستو ليها وجازفتو بي خمسيناية ..

قال وهو يرغب فِيْ مصالحتها:

_ خلاص إعتبريهو هدية مني .. تمنه علي .. ما فِيْ مشكلة .. إنتي تستاهلي أكثر مِنْ الشلوت ده ..

صمت برهة وهو يرقبها بطرف عينه، وهي تستقبل كلماته فِيْ فرح عارم وابتسامة رائعة. سألها بغتة:

_ إنتي وين فردوس الكامل .. طولنا ما شفناها ..

أجابت سريعاً دون أنْ تنتبه إلى نبرة صوته الراجية:

_ مسكينة .. جلكينه دقس واتلحس من شهرين تلاتة كده .. لكن إحتمال تجي البهجة الليلة .. أمس إشترت ليها فستان شرط للأرض .. و ..

نظـرت إليـه وقـد أحسـت بمـا تحـس الأنثـى متأخـراً، فانهـارت وقالـت لـه وهـي تـصرخ:

_ أنهـر الحديـدة دي .. وأكتـل الملـف الجـاي داك ووقـف نزلنـي فِيْ الشـاش .. يـا فـارة يـا وهـم أصلـك مـا بتعايـن لي ورقـك .. دايمـاً تعايـن فِيْ ورق غـيرك .. عاجبـاك الخمسـة شـنكل القـادة عـربي دي .. أهـه أمـشي ليهـا .. خليهـا تجضـم ليـك سـجمي القـرد زي مـا كنتـه بجضمـه ليـك .. فعـلاً زي مـا قالـوا لي .. كـرور وحايـم فِيْ الخـور ..

أوقـف سـيارته بعـد أنْ تجـاوز الملـف، نزلـت مِـنْ السـيارة وهـي تـصرخ بكلـمات غـير مفهومـات، نظـر إليهـا نظـرة أخـيرة كأنَّـه يودعهـا، ثـم رفـع زجـاج سـيارته وأشـعل هـواء التكيـف وانطلـق لحالـه.

ميريلاند – الولايات المتحدة الأمريكية (يناير 2015م)

الحمدُ للّه

الفهرس

إهداء..... 5
(1) أبُوكُم مَا بِسَوِيْهَا..... 7
(2) زَوْجِيْ لا يُحِبُ غَيْرِيْ..... 13
(3) أرِيْدُه مَازُوْخِيَّاً!..... 21
(4) أنَا الأفْضَلُ..... 29
(5) سَاكِنَةُ الَحيُ الرَاقِيْ..... 39
(6) يُسْعِدُنِيْ ويُشَرِفُنِيْ حُضُوْرَكُنَ!..... 47
(7) الخُرْطُوْمُ 2100..... 53
(8) حِكْمَةُ الشِيْخُ..... 59
(9) حِيْنَمَا تَبْكِيْ الأقْدَارُ..... 65
(10) حَدَثَ فِيْ بِلادِ الكُفْرِ..... 71
(11) سَأبِيْعُكُمْ عُذْرِيَتِيْ!..... 77
(12) كَدَايِسْنَا وكِلابُ الحِلَةِ..... 83
(13) أعَرِسْ وَزِيْر وأوَادْع الفَقِيْر .. يا الله حَضِرْنِي..... 87
(14) بِكَاءٌ قَاجِيْ..... 97
(15) الدَعْوةُ حَجةٌ .. والمَديحُ قَعْدَةٌ..... 105
(16) مُوْلُ العَجَائِب..... 111
(17) يا ابْشَرَا .. إنْ شَاءْ اللّه رَاجِلْ مَرَةْ..... 119
(18) إحْنَا أوْلَاد قَلِبَه..... 123

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس
WH
™